عبّاس سليمان

قبيل الشروق

نسخة الكترونية

تصميم غلاف النسخة الإلكترونية: صالح مبروكي 2021

عــبّـــــــاس ســلــيـمــان

قـُبَيْلَ الشروق

روايــة

الكتـاب : قـُبـَيـْلَ الشـروق

النوع : رواية

الـكـاتب : عـبـّاس سـلـيـمان

تـصـديــر

لم يكتشف الطّغاة بعد سلاسلاً تكبّل العقول.

(لورد توماس)

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

لم يدم الاجتماع الذي دعيَ إليه سليمان اليوم والذي خصِّص لتدارس وضع القطاع أكثر من ساعتين... فهِم كلّ الحاضرين بمن فيهم المسؤول المشرف أنّ العراقيل عديدة وأنّ المشاكل بلا حصر وأنّ النّقاش لن يجدي نفعا وأنّ الحلول الدّيبلوماسيّة استنفدت فاكتفوا بمجرّد لائحة لن يقرأها أحدٌ واحتسوا قهوة سوداء باردة وأمضوا في كشف الحضور ثمّ غادروا القاعة مسرعين... أدخل يده في جيبه وأخرج هاتفه الجوّال ليعيد تشغيله من جديد... الوقت كان قد وصل إلى الحادية عشر صباحا وعدد المكالمات التي سجّلها هاتفه وهو مغلق كان أيضا إحدى عشر... فتح باب السّيارة ... أدار المحرّك ... وبدأ في تكوين الأرقام التي اتّصل به أصحابها :

- زوجته تطلب حاجيّات معتادة من المغازة العامّة.

- ابنته تأمر بأدب بقارورة عطر خاصّ.

- السّكرتيرة تخبره بمراسلة مضمونها أيّام تكوينيّة بالعاصمة حول تقنيات التّواصل.

- أحد مديري المؤسّسات الرّاجعة إليه بالنّظر ينهي إليه نبأ اندلاع معركة أثناء سير العمل.

- مدير مؤسّسة أخرى يحيطه علما بتعرّض مكتبه إلى عملية سطو.

- مشرف على فضاء ثقافيّ إذاعيّ يخبره أنّه سيكون اللّيلة ضيفا على المستمعين للحديث حول تجربته الأدبيّة.

- كاتب من العربيّة السّعودية يعلمه أنّه أرسل إليه النّسخة الصّفر من مجموعته القصصيّة متمنّيا عليه أن يخصّها بتقديم.

- قارئة تنهي إلى علمه أنّها أنهت روايته الأخيرة وتسأله عن كيفيّة الحصول على أعماله الأخرى.

- شقيقه يسأله إن كان مازال لديه حبّات من ذلك الدّواء المهدّئ الذي أنقذه مرّات من نوبات اكتئابه.

- صديق يدعوه لحضور حفل زفافه المرتقب في غضون أيّام.

- صديق آخر يبشّره بأن خبرا سارّا في الطريق إليه ثمّ يفسّر بشراه بأنّه اقترح ليكون ضمن من سيكرّمون وطنيّا خلال اليوم السّنوي للثقافة.

كانت المغازة تعجّ بالمشترين وبالمتجوّلين. تفرّس في وجوه الخلق وراقب ما يفعلون قليلا... كثير منهم يكدّسون السّلع في حوامل مجرورة ويهرولون من جناح إلى جناح... بعضهم والطلبة منهم خصوصا يكتفون باقتناء صندوق شوكلاطة أو بسكويت أو لتر من الحليب ... التقطت عيناه واحدا يدسّ في جيبه الكبير قارورة عطر تبدو فاخرة فتظاهر بأنّه لم ينتبه إليه ومضى إلى حيث يجد اللّوازم التي طُلِبت منه... انتبه إلى أنّ أسعارها

ارتفعت ولكنّه دفع وأسرع بالخروج ... اقترب منه وهو يهمّ بسيّارته صديق يقول دائما إنّه حميمه ... دعاه إلى حانة محترمة تقع وراء المغازة فلبّى الدعوة مجاملة... لم تكن الحانة ممتلئة إلى حدّ الاختناق ولا كانت فارغة إلى درجة الوحشة.

قال له صديقه :

- هنا تباع القارورة بضعف ثمنها حتّى لا يرتاد المكان من هبّ ودبّ وصغار السنّ وأصحاب السّوابق ...

أتيا خلال ساعة زمن على صحن غلال وصحن مكسّرات وما استطاعا عبّه من الجعّة... وبدأ صاحبه الذي يقول إنّه حميمه يدخل يده في جيبه ثمّ يخرجها بيضاء... فيعيدها إلى جيبه الآخر فتخرج بيضاء مرّة أخرى ... نادى سليمان النّادلة الجميلة فنقدها صامتا لا يبدي تعليقا ثمن ما أكلا وما شربا وثمن ما تفضّلت به عليهما من ابتسامات ومن قبل. بدأت النّادلة بصاحبه فودّعته ببرود ثمّ تعمّدت وهي تسلّم عليه بحرارة وتقبّله أن تدسّ بين يديه ورقة عليها أرقام هواتفها.

بينه وبين سكناه أكثر من خمسين كيلومترا ... عمد إلى أن يخفّف السّرعة في المواقع التي اعتاد أن يقف فيها الباحثون عن فرص مجانيّة للتّنقل عساه يعثر على واحد يطمئنّ إليه فيقصّر به أو معه الطّريق ولمّا تجاوزها جميعا شدّ حزام الأمان وضغط على دوّاسة السّرعة واستعان بشريط مسجّل يجمع

بين وردة الجزائرية ونزار الدّمشقيّ ... لم تكن حركة السّيارات في الاتّجاهين متواترة ... انتبه إلى أنّ العربات التي تعترضه قليلة جدّا ... وشدّ انتباهه أيضا أنّ عربة سوداء خفيفة تلاصقه من الخلف كأنّها تلاحقه... خفّف السّرعة فخفّت سرعتها. سرّع السّير فاقتربت منه أكثر ... أشعل ضوء التوقّف في إشارة إلى أنّه سيركن سيّارته على اليمين فعبّرت السيّارة السّوداء عن رغبتها هي الأخرى في التّوقف ... ثمّ عدل عن ذلك فجارته في عدوله.

قال نزار :

"لا وقت لدينا للتّاريخ *** فنصف حوادثه تزييف"

فقال هو في نفسه :

"لا وقت لديّ للأوهام، المهمّ أن أصل سالما، ولن أكترث لأمر هذه السّيارة."

قال ذلك ولكنّه لم يستطع أن لا يهتمّ للأمر، فعندما بلغ المدينة وقطع فيها ما يساوي خمس دقائق كانت العربة السّوداء لا تزال وراءه ... وحتى لمّا حالت بينه وبينها سيّارة خفيفة أخرى أسرعت هي تستعيد مكانها لتلاحقه من جديد ... استدار إلى اليمين فاستدارت إلى اليمين ... توقّف أمام كشك سجائر وترجّل قليلا فتوقّفت، واستطاع سليمان أن يرى سائقها يتظاهر باستعمال هاتفه الجوّال فيما رفيقاه يحنيان رأسيهما كأنّهما

يخفيانهما عنه ... انطلقت سيّارة سليمان من جديد فانطلقت السّوداء وراءه... عندما استدار إلى اليمين ودخل الشّارع المؤدّي إلى منزله والسيّارة تحافظ دائما على مكانها وراءه تأكّد أنّه ليس واهما وأنّ مَن في السيّارة يتّخذونه هدفا ويتعمّدون ملاحقته وينوون أن لا يتوقّفوا إلاّ عندما يركن سيّارته أمام الباب ... قرّر أن يتوقّف فجأة وأن يذهب لاستفسارهم عمّا يريدون ولكنّه عدل عن ذلك مرجئا هذا الحوار الذي لا يبدو منه بدّ إلى حين الوصول. ألحّت عليه احتمالات عديدة : أن يكون ثمّة في الأمر خطأ مّا ... أن يكون لدى الثّلاثة نيّة السّؤال عن أمر بعينه ... أن يكون ... أن يكون ... تذكّر والاحتمالات تتزاحم في رأسه تباعا يوم تحرّك في جيبه هاتفه الجوّال وهو في طريق أوبته من عمله.

- سي .....

- نعم، مرحبا.

- فلان، من فرقة الأبحاث الخاصّة بسلامة أمن الدّولة.

ارتعد، وضغط على الجوّال حتّى لا يسقط من يده ولكنّه تصنّع الهدوء وقال :

- مرحبا.

- نحن في انتظارك أمام سكناك.

لا يذكر كيف قطع بقيّة الطّريق ولا يدري كم احتمالا نسج خياله خلال تلك الدّقائق... كانت سيّارة خضراء بعجلات عالية راسية أمام الدّار، سلّم في أدب وعيناه وانقباض وجهه وارتعاش أصابعه يفضحون فشله في تصنّع اللاّمبالاة.

- لا بأس ؟ سأل المفتّشين.

- نسيت ؟ ما تعرفش آش عملت ؟

أربكه جوابهما. أبكمه. أرهبه. ولكنّه قال :

- خير ؟ آش عملت ؟

فردّ أحدهما ببرود شديد :

- أنسيت أنّك تقدّمت بملفّ لاجتياز مناظرة داخليّة للالتحاق بمركز تكوين يتيح لك ترقية في الرّتبة ؟ ذلك يقتضي أن نجري حولك بحثا دقيقا.

بقدر ما عاد إليه اطمئنانه الذي هرب منذ تلقى المكالمة، بقدر ما أحسّ باحتقار شديد نحو ذينك المفتّشين لبلادتهما وركاكة أسلوبهما وتعمّدهما استفزازه دون موجب. المهمّ أنّه اضطرّ ليجيب عن أسئلتهما وليملأ السّائلان استمارتهما إلى أن يعود إلى محطّات عديدة أوّلها سنوات طفولته.

مدرسته الأولى.

معهده الثّانوي.

تعليمه العالي.

رتبته الحاليّة.

شهائده العلميّة.

انتماؤه السّياسي.

انتماء عائلته.

مقهاه المفضّل.

رقم جواز السّفر.

البلدان التي زارها.

أسباب الزّيارة.

زوجته.

أطفاله.

أصهاره.

dimanche 21 mars 2021

صالح مبروكي

SALEH MABROUKI

توقّع أن ينزل الجماعة بمجرّد رؤيته نازلا ولكنّهم تعمّدوا أن يتباطؤوا... تركوه يلج البيت... ثمّ طرقوا الباب. هبّت زوجته لتفتحه فصدّها وجذب الباب بعنف ليجد نفسه في مواجهة ثلاثة وجوه منتفخة ترسم ابتسامات لا لون لها. هدّأت تلك الابتسامات من فورة غضبه ... ثمّ قال أحد الثّلاثة :

_نحتاجك قليلا سي سليمان، وقتا قد يطول وقد يكون قصيرا. أرجوك طمئن عائلتك وأخبرهم أنّ الأمر لا يتعدّى إجراءات عاديّة تحدثُ دائما.

لم يقل شيئا ... تنحّى عن مواجهة الجماعة وتركهم يتّجهون إلى غرفة الجلوس وذهب يستعدّ لمرافقتهم. جاءه وهو يولّيهم ظهره صوت أحدهم :

- خذ معك ما يلزمك، بعض الملابس، دواءك... أدوات التّنظيف ...وما تراه صالحا لإقامة قد تمتدّ أيّاما.

كان عبّاس يعتقد دائما بأنّ الأفضل اجتناب النّقاش الذي لا يجدي نفعا. هو هكذا. لا يحبّ أن يجادل فيما يتأكّد أنّه محسوم مسبّقا، لا يتغيّر ولا يبدّله الكلام... من عادته أن يناقش فيما يؤدّي فيه النّقاش إلى زعزعة، إلى زحزحة، إلى تغيير... أمّا ما سطّر وأصبح قدرًا أو كالقضاء فالخوض فيه مضيعة للوقت وإهدار للجهد وذلّ لا يرضاه لنفسه.

على عجل، جمع ما بدا له ضروريّا وكافيا لإقامة قالوا إنّها قد تمتدّ أيّاما... كانت زوجته تمطره أسئلة ولكنّه لم يستطع أن يردّ عليها بغير كلمات مقتضبة مختنقة لا معنى لها... كان يستعجل الخروج إلى درجة أنّه جاء الجماعة بعد دقائق قليلة يحمل حقيبة من الحجم الصّغير وقال لهم :

- هيّا، أنا جاهز.

انتبه وهو يغادر البيت إلى أنّ زوجته كانت تمسك بيدها هاتفها الجوّال تكوّن لاهثة أرقاما متتالية وتمسك بيدها الأخرى سطلا من الماء لتريقه وراء السّيارة السّوداء وهي تصيح في وجوه الذين حلّوا لأخذه داعية عليهم دعاء مرّا لا يدري عبّاس كيف استطاعت أن تؤلّفه بمنتهى تلك السّرعة وتخرجه كما يخرج شاعر هجّاء ساخر أبياتًا انكبّ عليها أيّامًا يركّبها.

رغم حزنه، رغم خوفه، رغم انهياره، تسلّلت إلى قلبه ابتسامة لمجرّد أن انتبه إلى أنّ زوجته صبّت الماء ليعود إليها سالما في حين أنّ هناك احتمالا آخر قد يكون صحيحا... ألا يمكن أن تكون مخطئة لأنّ الماء الذي صبّته قد يعيد إلى الدّار هؤلاء الجماعة مرّة أخرى أو مرّات أخرى !!!

استطاعت الابتسامة أن تتغلّب للحظة على حزن عباس حين انتبه إلى حكاية الماء وحين انتبه إلى أنّ زوجته لم تستطع أن تتخلّص من رواسب أمّها فيها ومن إيمانها كالعجائز

بمفعول البخور وصبّ الماء وحتّى حروز الشّفاء رغم ما هي عليه من علم ومعرفة وشهرة.

كاد يشكّ في أنّ واحدًا من الثّلاثة، ثالثهم خاصّة الرّاكب إلى جنبه في المقعد الأخير، قد يلفّ عصابة سوداء حول عينيه حتّى لا يرى الطّريق ولا إلى أين هم ذاهبون... مجرّد إحساس استبعده مباشرة بعد ما نبت فيه بثانية. ثمّ راوده شكّ آخر في أنّ الجماعة قد يتحدّثون بما يزيح عن الأمر بعض الغموض... ولكنّ حديثهم كان حول سهرتهم البارحة... كم قارورة شرب كلّ منهم، كم قارورة أرسلت إلى طاولتهم هديّة - والهديّة هي التّهذيب التّونسي لعبارة "الرّشوة" – وعن وقت وصول كلّ منهم إلى بيته وعن تفاهات لا طعم لها... كانت الأمور تبدو له تافهة جدّا ولكنّ الثّلاثة كانوا يجادلون فيها بجدّيّة غريبة وكانت نكتهم متهافتة لا تضحك حتّى أطفال الرّياض في حين كانوا جميعا يلجّون بعد كلّ واحدة منها في ضحك هستيري عالٍ وطويل.

المدينة التي كان يحضر فيها هذا الصّباح اجتماعا حول مشاغل القطاع والتي جاءها ممتطيا سيّارته الخاصّة البيضاء والتي غادرها أيضا ممتطيا نفس السيّارة ومعه حاجيات منزليّة وعطر وغلال هي نفسها التي يعود إليها – أو يُعاد إليها الآن – في سيّارة أخرى سوداء ومعه أغراض قليلة وفي رأسه شكوك واحتمالات وأسئلة كثيرة ومخاوف جمّة أيضا.

ساعة زمن كانت كافية لبلوغ المدينة – مركز الولاية – والوصول إلى بناية طالما مرّ أمامها ولم يُعرها اُهتمامًا اسمها مقرّ منطقة الأمن الوطني.

أخلى الجماعة مسؤوليّتهم بمجرّد أن أودعوه مكتبا ملئت له فيه استمارة وأخذ فيه منه هاتفه الجوّال... ودّعه الثّلاثة متمنّين له حظّا سعيدًا ثمّ جيء بعون أمن قاده وهو مسلوب الإرادة والفكر إلى حيث أحسّ أنّه مسلوب الحرّيّة أيضا.

المكان الذي أودعت به، قبوٌ واطئ بطول يصل إلى ثمانية أمتار وبعرض لا يتجاوز المترين... باردٌ، رطبٌ، نديٌّ ... كان يصطفّ داخله اثنا عشر سريرًا، بكلّ سرير طابقان، ولم تكن كلّ الأسرّة مشغولة، لم يكن بكلّ الدّهليز غير ثلاثة أنفار... انتظرت أن يلتفّوا حولي ويسألون عن حالي وعن ما جاء بي إليهم ولكنّ شيئا من ذلك لم يحدث. اِرتميت فوق آخر سرير فارغ وبدأت أحدّق في السّقف الذي لم يكن يبعد عن عينيّ إلاّ أشبارا. ثمّ انتابتني نوبة عطاس عنيف فوضعت مخدّة على وجهي وجذبت الغطاء المكوّم عند قدميّ وأنكمشت... جاءني بغطاء آخر واحد من الرّجال الثّلاثة... وضعه فوقي في رفق وفي صمت وعاد إلى سريره في رفق وفي صمت.

كنت حزينا.

وكنت خائفا.

وكنت قلقا.

وأحسست رغم ذلك كلّه بالجوع.

قال لي الذي جاءني بغطاء :

- هل تغدّيت ؟

- لا. أجبته.

- ستضطرّ إذن إلى أن تنتظر وجبة العشاء.

السّاعة كانت حواليْ الثّالثة بعد الظّهر... وبين الأغراض التي تحويها حقيبتي لا شيء يؤكل عدا الدّواء... وأغلب الأدوية التي جلبتها تتّفق آثارها الجانبيّة على فتح الشّهيّة وعلى النّعاس ... أنا في حاجة إلى النّعاس ليمرّ الوقت ولكن كيف أقاوم أثر انفتاح الشّهيّة إن هي انفتحت ؟ اقترب منّي رجل من ثلاثيّ الدّهليز أو رباعيّه ومدّ إليّ قطعة خبز وعليه ياغورت فسكت جوعي.

أقنعني صمت الجماعة أنّ ما بداخل كلّ منهم من همّ أكبر من أن تحويه الكلمات ... أكبر من أن يقال ... ولعلّ الثّلاثة فهموا بدورهم أنّني لن أستطيع أن أتكلّم وأنّ الكلام لن يجديَ نفعًا ... كلّ كان يريد أن يتكلّم مع نفسه، أن يفكّر فيه ... أن يضع وحده احتمالاته وأن يستعرض بمفرده الأسباب التي يعرفها أو التي يتوقّع أنّها التي آلت به إلى هذا القبو الطّويل الواطئ البارد الحزين. تعوّدنا أن نقول لأنفسنا ولبعضنا بعضا أنّ الكلام يفرّج عن الصّدر همومه ولكنّ التجربة علّمتني أنّ الأمر ليس كذلك دائما. فكثيرا ما يعقّد الكلام الأمور ويزيد من درجة الإحساس بالقهر ... إنّه تماما كالخمرة، يقول الكثيرون إنها تنسي الهموم ولكنّها تزيد نسبة الإحساس بالهمّ كلّما ازدادت نسبة سريانها في الدّماء.

لم يكن بالمكان جهاز تلفزة ولا لدى أيّ من الثّلاثة جهاز راديو ... ولم يثر كدس الجرائد الذي رأيته مكوّما في غير ترتيب شهيّتي للقراءة... ولم يتجرّأ أيّ من رفاقي الجدد على الشّروع

في أيّ حوار ... أراحني ذلك في البداية ولكنّي فجأة أحسست أنّني في حاجة إلى أن أتحدّث أو بالأحرى إلى أن أستمع إليهم وإلى تجاربهم فقد يعينني حديثهم في ما أنا مقبل عليه غدا أو بعد غد أو في الأيّام القادمة.

قلت لهم :

- يا جماعة، أنا فلان الفلاني، لعلّ بعضكم يعرفني أو يسمع عني. جئت لا أدري لماذا لكنّي أتيت. رافقتني سيّارة إلى بيتي ثمّ طرق جماعتها الباب ... أخذوني ورموني هنا بينكم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء أيّ توضيح. قال الذي أضاف إلى غطائي غطاء آخر منذ حين :

- كم تمنّيت لو كنّا التقينا في مكان غير هذا ... ولكن لا يهمّ ... أنا محروس الحفيان، المفروض أن تكون قد علمت بقضيّتي وأن أصداءها بلغتك. اشتركت مع جماعة في تزييف العملة. قبضوا علينا في ليلة واحدة ثمّ وقع تسريحهم جميعا ولم تُبْقِ الفرقة المختصّة على غيري.

وقال الذي جاءني بقطعة خبز وعلبة ياغورت والذي معه :

- نحن النّاصر ومنصور. نفّذنا منذ أيّام اعتصاما أمام مقرّ دار الحزب الحاكم احتجاجا على بطالتنا التي طالت ... نصبنا خيمتين ورابطنا فيهما مع زوجتينا وأبنائنا فجيء إلينا بفرقة يسمّونها "الأنياب" والحمد لله أنّهم لم يأخذوا زوجتينا.

- منذ متى وأنتم هنا ؟

قال اللّذان كانا محتجّين تعبيرا على الجوع :

- منذ يومين.

وقال ثالثهما :

- منذ أربعة أيّام.

أدركت وقتها أنّ المدّة ستطول وأن إجراءات الاستنطاق ستحترم الأولويّة... وأنا آخر هؤلاء... وضعت المخدّة على وجهي وبدأت أحاول أن أنام. ركبني إحساس مرير بالحزن، إحساس قاتل ... ولا أدري ما الذي ذكّرني بوفاة صديق لي رحل عن الدّنيا منذ أقلّ من شهر ... غلبته إغفاءة وهو يقود سيّارته فساقته السيّارة نحو شاحنة قادمة من الاتّجاه المعاكس... هكذا قصفت عمره الذي لم يتعدّ الأربعين، إغفاءة نوم بلهاء جاءت في الوقت غير المناسب ... عندما عدنا من جنازته والوقت يقترب حينها من الغروب، كنت أفكّر في شيء واحد، كنت أفكر في صاحبي الذي سيبيت هناك وحيدا... فيما زوجته التي لا تزال شابّة ستنام هي الأخرى وحيدة... هو في مثواه الأخير، وهي في سريريها البارد. أحسست أن لا فرق بيني وبينه. كلانا يبيت وحيدا. كلانا ترك من يبيت منفردا.

يا ربّي كم تتشابه الأحزان.

كم يتشابه الأحياء والأموات.

وكم يصبح الحزن ملحّا عندما نكون في حاجة إلى ومضة فرح، إلى قطرة أمل... إلى نقطة ضوء.

مرّ الوقت بطيئا قبل أن يحين أوان العشاء... ثمّ جيء إلينا بثلاثة أرغفة فيها زيتون وأشياء تشبهه ومعها قارورة ماء عادي... وأغلق الباب بطريقة توحي أنّه لن يُفتَح قبل انبلاج صباح اليوم الموالي... ذلك العشاء لم يكن له طعم ولا لون ولا رائحة، ولكنّه كان ضروريّا لأسكت به جوعي ولأقاوم به اللّيل والبرد والأرق والوهن ولأستعدّ به ليوم قادم لا شيء ينذر أنّه سيكون جميلا.

شعرتَ بومضة فرح تبرق داخلكَ لمجرّد أنّ اللّيل انتهى ولأنّكَ استطعتَ أن تنام منه قليلا ... لم تتبادلوا تحايا الصّباح، ربّما لأنّ كلّ واحد منكم كان يدرك أنّ التحيّة ستكون جوفاء وبلا معنى... كنتم فقط تنتظرون أن يُفتَحَ الباب، لتعيشوا حدثا مّا. كنتَ تتوقّع أن يؤتى بشيء كفطور للصّباح، قهوة سوداء وقطعة خبز أو قطعة خبز وكأس حليب أو أيّ شيء آخر يمكن أن يكون وجبة أولى ... ثمّ يُنادى أقدمُكمْ مجيئا إلى الحجز. لمْ يكن توقّعك صحيحا كلّه... ولا كان خاطئا كلّه، فقد جيء إلى كلّ منكم بقطعة خبز يابس وقهوة رماديّة اللّون ولكنّ منْ نوديَ ليحقَّق معه لم يكن أوّلكم مجيئا إلى الحجز، كان أنتَ.

القاعة التي أدخلت إليها كانت شبيهة بقاعات جلسات المحاكم ولم تكن تختلف عنها إلاّ في خلوّها من كراسي لجلوس المتّهمين ومحاميهم وذويهم وشهود العيان والمتطفّلين. لم يكن فيها غير منصّة عالية وطويلة. لم تستغرب خلوّ القاعة من الكراسي فذلك يعود حتما إلى أنّها ليست مخصّصة للجلسات العموميّة بل لاستنطاق الأفراد ... الذي أثارك وأربكك وبعثرك هو عدد مَن وراء المنصّة ... سيقول القارئ اثنان ثالثهم رئيسهم وسيقول ثلاثة رابعهم مسؤول عنهم... وسيقول غير ذلك ... ولكنّ الحقيقة أنّهم كانوا تسعة. ثمانية أعضاء ورئيس أو سبعة رجال وامرأتان. أنتَ لا تنكر أنّ العدد زاد من هلعك ولكنّك لا تستطيع أن تخفيَ أنّ شعورا بالزّهو برق

داخلك لمجرّد أن استنتجت سريعا أنّك وحدك، وليس معك غير خوفك وتشاؤمك وقلّة حيلتك تساوي هذا الجمع الغفير !!! ساعدك ذلك الشّعور الفجئيّ الجميل في أن تستعيد توازنك وتداري خوفك ولكنّك لم تستطع أن تداري حيرتك ... نظرتَ إليهم نفَرًا نفَرًا، بدأت بالمرأتين، خمسينيّتان، واحدة بشعر أسود كاللّيل وطويل يجاوز الكتفين وببدن يبدو نصفه الأعلى مكتنزا بل ومزدحما، وأخرى بشعر أصفر ذكّرك بشعر ثمرة القطانيا وبوجه له شكل بركار مفتوح على زاوية حادّة، تلبس صدريّة حمراء مشقوقة وتضع نظارات طبيّة من الحجم الصّغير ... ثمّ انتقلت عيناكَ إلى الرّجال السّبعة فمررت عليهم وجها وجهًا مرجئا التّوقّف عند التّفاصيل إلى وقت لاحق. قال الرّجل الذي يتوسّط التّسعة، وكان أكبرهم سنّا وأضعفهم بدنا وأضيقهم عينين وأشيبهم.

- مرحبا بك سي سليمان.

فردَدتَ عليه :

- شكرا.

- من حقّك أن تعرف طبعا لماذا أنت هنا ولماذا لاحقتك سيّارة إلى بيتك ثمّ طرق بابك من فيها واصطحبوك إلينا. قال ذلك وأخذ من فوق الطّاولة مجموعة كتب كانت أمامه ورفعها حتّى تصبح نصبَ عيْنيْكَ.

- أهذه كتبكَ ؟

وأخذ يمرّرها أمامك واحدا واحدًا !

قلتَ لهُ :

- نعم. هي كتبي.

ثمّ قلتَ لنفسك :

- الآن، انحلّ لديك لغزان. أنت هنا من أجل الكتب أو بسببها وأنت أمام ثمانية لأنك أصدرت ثمانية مؤلّفات بما يعني أنّ كلاّ منهم سيحقّق معك في كتاب فيما لا يعدو هذا التّاسع أن يكون رئيسا عليهم.

قلْتَ للرّئيس :

- إذن، يبدو أنّ الجلسة أو الجلسات ستطول ولست أدري إن كان يُعقل أن أظلّ واقفا طوال كلّ الوقت. ألا يمكن أن تأذن بإحضار كرسيّ حتى لا أتحمّل مشقّتين، مشقّة الوقوف ومشقّة الاستجواب.

- معك حقّ. الجلسة ستطول وستعقبها حتما جلسات أخرى.

ثمّ ضغط على زرّ وأمرَ بكرسيّ.

قلتَ :

- أعرف أنّني هنا لأُسألَ لا لأَسأل، ولكن اسمحوا لي قبل أن أستمع إلى أسئلتكم التي أقدّر أنّها ستكون عديدة أن ألقيَ عليكم سؤالا واحدا.

ولم تنتظر أن تجابَ إلى ما طلبت إنّما مررت مباشرة إلى السّؤال.

- أريدُ أن أعرف منكم سبب استدعائي وسبب مثولي أمامكم وأيّ جرم ارتكبت حتى أساق من داري إلى قبو مظلم وحتّى أقف موقف المجرمين وأصحاب السّوابق والشّاذّين عن السّلوك السّويّ والقانون ؟

لم تلاحظ أنّ سؤالك أثار في أيّ من التّسعة الغضب ولا الاستياء بل إنّ الرّئيس تولّى إجابتك بكلّ وضوح :

- يا سي عبّاس، ثمّة جهة مّا رشّحتك للحصول على جائزة الدّولة في مجال الآداب، وقدّمت اسمك ضمن أسماء أخرى وأرفقت كلّ ترشيح بكتب صاحبه، ولمّا كانت الجائزة على هذا القدر من الأهميّة، فقد وقع تشكيل هذه اللّجنة الماثلة أمامك لقراءة ما كتب المرشّحون، حتى ينال الجائزة من يستحقّها فعلا ... قرأنا كتبك من أوّلها الصّادر سنة 2001 إلى آخرها المنشور عام 2010 ... ولكنّنا يا سيّد سليمان اكتشفنا جميعا أنّك لا تستحقّ عمّا كتبت أن تنال هذه الجائزة العليّة ... وكتبنا حتى نبرّئ ذممنا تقريرا فصّلنا فيه القول عمّا عثرنا عليه من إساءات

ومن أفكار هدّامة ومن معارضة واضحة ... فجاءتنا الأوامر بالتّحقيق معك في ما كتبت حرفا حرفًا. هل فهمت الآن لماذا أنت هنا ؟

أجبْتَـهُ :

- نعم. لم أفهم.

فردّ عليكَ :

- ذلك ليس مهمّا. المهمّ أنّنا قسّمنا الأمر بيننا بعدد كتبك التي أصدرْتَ. وسنحيل الكلمة الآن إلى "سي صابر المهذّب" أو " المهذّب صابر"- والتفت إليه ليسأله أيّهما الاسم وأيّهما اللّقب- وسيتولّى مساءلتك عن كتابك الأوّل فيما سنكتفي نحن بالاستماع والملاحظة والتّسجيل.

قبل ثانية من إمساكه المكرفون وتثبيته أمامه، كان صبوحا وكان بشوشا وكان يبدو طيّبا ولا شيء في كلّ ملامح وجهه كان يوحي بالشّرّ والشّرَر... بمجرّد ما أحيلت إليه الكلمة، تغيّرت سحنة وجهه وانكمشت عيناه وانتفخت وجنتاه واحمرّتا واكفهرّ واربدّ. نظر إليك من رأسك إلى قدميك ثمّ من قدميك إلى رأسك وأخذ يحرّك رأسه استهزاءً. كنت تدرك أنّها حركة مقصودة ليشعرك ويقنعك أنّك ضعيف أمامه... وأنّك أصغر منه. لم تعِر حركته بالا بل إنّك تعمّدت أن تتحدّاه مبتدئا بالسّؤال :

- تفضّل، اسأل عن كتابي الأوّل، ما الذي لمْ يعجبك فيه ؟

- أوّلا، ما هذا العنوان التّعيس ؟ الموت ومشتقّاته في عنوان واحد... ألا تعرف أنّ العنوان واجهة الكتاب ؟ " موتك يقتلني "، الموت والقتل معًا ؟! أترى أنّ القرّاء اليوم في حاجة إلى كتاب عنوانه موت وقتل ؟

رددتَ عليه :

- ولكنّ هذا العنوان الذي لم يعجبك أعجب قرّاء كثيرين، بل وشوّقهم ورغّبهم في قراءة الكتاب !

- ربّما لأنهم سوداويّون مثلك متشائمون ويائسون. أمّا أن يقبل قارئ عاديّ محبّ للحياة ومقدم على الدّنيا على قراءة كتاب بهذا العنوان فهذا لا يحدث أبدًا.

قلت له :

- دعك من العنوان وهات ما لم يعجبك في الكتاب.

- أشياء كثيرة : أوّلا، في نصّك الذي عنوانه : " اليوم يقبض جرايته"، قدّمت الرّجل التّونسيّ في صورة تعيسة جدّا، فصوّرته عبدا لامرأته وصوّرته وهو موظّف محترم – متسوّلا يشكو عجزا ماليا مستديما ... وهذا يتنافى تمامًا مع ما تسعى إليه الدّولة الحريصة أبدًا على المحافظة على القدرة الشّرائية للمواطن وعلى أن توفّر له أسباب الحياة الكريمة.

الموظف في نصّك متسوّل والمرأة فيه إمّا مبذّرة إلى حدود الإفلاس أو محترفة في الاختلاس.

- يا سيّدي، أنت قلت إنه نصّ، يعني أنّه كلام فيه كثير من الخيال عماده الطّرافة والتّشويق والعدول عن العاديّ لشدّ القرّاء وإمتاعهم. هل وجدتني أسمّي شخصا بعينه ؟ أم وجدتني أتحدّث عن مواطن من عامّة الناس ؟ أنا لا أفهم ما الذي يقلقك أنت من أن يصوّر كاتب حالة الموظّف التّونسي ؟ أنت قلت إنّك وجدته في النصّ متسوّلا، يا سيّدي، هو كذلك فعلا. إنّه يتسوّل زملاءه وإدارته والبنوك والمغازات... إنّه يعيش بالتسوّل. أمّا المرأة، فأيّ غرابة في أن تكون في مجتمعنا المتناقض المتنوّع امرأة مبذّرة أو واحدة تحترف الاختلاس ؟

دعك الآن من هذا. هات ما أقلقك ثانيا.

- في نصّك الذي عنوانه : "يوم من أيّام محمود"، صوّرت الشابّ التّونسي على أنّه ضحيّة، يدرس ويتخرّج ثمّ يظل عالة على عائلته ... حتى إنّك قلت إنّ أمّه تمدّه بدينار كلّ يوم، ألا ترى في هذا نكرانا لمجهودات الدّولة وإساءة إلى شباب تونس ودعوة لهم إلى التّكاسل وإلى التّواكل على الغير ؟ ألم يكن الأجدر أن تصوّر هذا الشّابّ وهو يسعى إلى تجاوز بطالته المؤقّتة بكلّ السّبل بدل أن تصوّره مكتفيا بدينار أمّه وجريدة أبيه ومقهى أصدقاءه وسبات لا تفارقه الأحلام ؟

- أنا يا سيد "مهذّب" مستغرب جدّا ... ألم يكن جديرا بك أن تتعاطف مع "محمود" وأمثاله وتقدّر اهتمام صاحب النصّ بفئة قتلها التّهميش وقضت على أحلامها اللاّمبالاة ؟ ثمّ دعني أسألك : أليس لديك أنت أو لدى أقاربك من تنام شهادته في إطار بلّوري منذ سنين ؟ أليس لديك من أنهى دراسته وتخرّج بنجاح فلم يجد ما يفعل غير التسكّع بين المقاهي والشّوارع ؟

- ليس المهمّ أن يكون لديّ أو لا. المهمّ كيف نصوّر هذه الحالة. هل ترى أنّك قدّمت حلاّ ؟ لا. أنت عقّدت المشكل وقدّمت للآخرين شبابنا في صورة سيّئة وشهائدنا العليا في صورة أسوأ وصوّرت مقاهينا على أنّها زوايا يرتادها الفاشلون.

- لا أظنّ. أنا أختلف معك. والفهم الصّحيح للأدب يقتضي على الأقلّ أن لا نكتفي بقراءة وحيدة. سأعتبر تأويلك سليما إلى حدّ. ولكنّه ليس التّأويل الوحيد. تلك قراءتك، أنت حرّ فيها، لكنّ محمودًا وأمثاله لا يمكن أن يتّفقوا معك ... أنا لم أقدّم الحلّ ولكنّي نبّهت بطريقتي إلى المشكل.

- ثالثا : في أقصوصتك التي أسميتها "لا عليك" تعمّدت يا سي عبّاس أن تبالغ في الإساءة إلى الإدارة التّونسية، وقدّمتها على أنها لا تفعل شيئا عدا تعقيد الأمور وصوّرت موظّفيها على أنّهم دُمًى تحرّكها الرّشوة والعطايا ... أليس هذا تعميما القصد منه الإساءة إلى المواطنين على أساس أنّهم راشون والإساءة

إلى الدّولة على أساس أنّ إجراءاتها معقّدة وعلى أساس أنّها صامتة لا تحرّك ساكنا كأنّها راضية عن انتشار الارتشاء؟

- ولكنّ هذا ما يحدث فعلا ! هات لي إدارة واحدة وحيدة لا تتعامل بالرّشوة ! وبالمحسوبيّة ! فهل يُعقَل أن نصوّر إدارتنا على أنها مدينة فاضلة تضع مصلحة المواطن فوق كلّ اعتبار ؟ الرّشوة يا سيّدي أصبحت من عاداتنا التي سرت في دمنا حتّى بتنا ندفعها حتى مقابل رخص السّياقة وهذا يعني أنّ هناك من يشتري الموت وأنّ هناك من يبيعه بأثمان معقولة... ثمّ إنّنا لا نفعل بعد ذلك غير إحصاء عدد الجرحى والأموات في كلّ عام ومقارنته بالعام الذي سبقه.

- كلامك يا سليمان لا يقنع أحدا، ولكن دعني أسألك، هذه القصص التي كتبت، أليست تونسيّة ؟

أردتَ أن تتجنّب الخوض في تفاصيل الجواب فقُلْتَ :

- نعم.

- فلماذا بدا الرّجل فيها عاجزا في قصّة "الموعد"، ساذجا ومخدوعا في "أبو أسامة"، مهووسا وشكّاكا في "الولاّعة الزّرقاء"، فاسدًا في "ليلة القبض على حليمة"، وفي "الدّرس الخصوصي" وفي "قدر الأغبياء"، انتهازيّا في "هذه ليلتي". ولماذا بدت المرأة بائعة هوى وفاسدة ومفسدة فيها جميعا ؟

لن تقول هذه المرّة إنّ استنتاجاتي خاطئة وإنّ تأويلي في غير محلّه ؟!

قلْتَ :

- كلّ استنتاجاتك سليمة... أنت مخطئ فقط في توظيفها... الذي فهمته هو أنّك تريد للأدب أن يكون صورة بيضاء خالية من كلّ إشارة إلى أيّ حدث يعكّر الصّفو ... تريد للأدب أن يخلق جنّة غير موجودة ويصدّرها إلى النّاس محاولا إقناعهم بأنّها ستوجدُ يوما... أنت نسيتَ أنّ النصّ القرآني نفسه، رغم أنّه لم يكن أدبا، لم يكن على الصّورة التي تحبّ... تذكّر معي إن شئت قصص بني إسرائيل وقصص الأنبياء وحكاية يوسف. هل نلوم قرآننا على أنّه قدّم "زليخة" في صورة امرأة مستهترة ؟

- أنت تجري مقارنة لا تجوز.

- وأنت تطلب من الأدب ما لا يُطلب منه.

- الأدب واجهة. واجهتي أنا، واجهتك أنت، واجهة الوطن. فلماذا يقدّم أدبك الوطن على أنّه أعرج والمجتمع على أنّه يعجّ بالسّواد والفساد والفاسدين والسّذّج والمغفّلين ؟ أنا متّفق معك في ضرورة حضور الخيال، ولكن لماذا لا يذهب خيالك إلاّ إلى الأسوأ ؟ أليس في ما ذهبت إليه قصصك إساءة مقصودة للبلاد وللقائمين على تسيير شؤونها ؟ ... وقد توفّرت لك الفرصة لتبرير ما ذهبت إليه فزاد دفاعك عن نفسك من اقتناعنا

بذنوبك. تلك الذّنوب التي تأكّدت في كتاباتك التي تلت "موتك يقتلني" وهو أمر سأترك الحديث فيه إلى زملائي وزميلتَيّ الذين أشكرهم جميعا جزيل الشّكر لأنّهم تابعوني باهتمام ولم يقاطعني أحد منهم واكتفوا بالملاحظة والتّسجيل.

قال رئيس الجماعة وهو يحاول أن يتجاهل ضحكتك السّاخرة :

- سنكتفي بهذا القدر في ما يخصّ كتابك الأوّل. وسنمرّ الآن إلى الذي صدر بعده ...

ثمّ أحال الكلمة إلى واحد آخر، بدا لكَ قميئا، برأس كبير ووجه صغير ونظّارتين غطّتا نصف وجهه الأعلى ... أحسسْتَ بالقرف لأنّ كتبك التي يتناولها قرّاء كثرٌ وطلاب ودارسون أصبحت في متناول هؤلاء التّعساء الذين لا علاقة لهم بالأدب... الذين يفهمون الأدب على أنّه سوء أدب... ويحاسبون على النّوايا ولا يذهب فهمهم في غير اتجاه وحيد. ولكنّ شعورَ فرحٍ بارق لمع فيك لمجرّد أنّك انتبهت إلى أنّك أضفت إلى قرّائك تسعة آخرين لم تكن تتوقّعهم ولا ظننت يوما أنّهم سينضمّون إلى قرّاء الكتب.

قال لك الرّجل القميء صاحب الرّأس الكبير والوجه النّحيف والنظّارتين الكبيرتين :

- سأبدأ من حيث بدأ زميلي الفاضل منذ ساعة... من العنوان. لست أدري لماذا لم تختر لكتابك هذا غير "أيّام العطش" عنوانا؟

أتراه عنوانا جذّابا ؟ ملفتا للانتباه ؟ مرغّبا في اقتناء الكتاب وقراءته ؟ ألا تطالعون أنتم الكتّاب تلك العناوين البديعة المملوءة حبّا وحياة وجمالا وحماسا التي يضعها كتّاب أمريكا وأوروبّا واليابان والصّين ؟ ألا تعودون حتى إلى عناوين كتب التّراث العربي ؟ لماذا "أيّام العطش" ؟ أتعني أنّ البلاد تعيش العطش؟ العطش يا عبّاس مرّ ... العطش قاتل. ألا تعرف أنّ الكاتب الكبير، الكاتب المعجزة ... طه حسين، رحمه الله، وضع لكتابه الشّهير عنوانا هو "الأيّام"، كان أعمى ولم يقل "أيّام العمى". وترك للقارئ باب التّأويل مفتوحا، لم يضف إلى الأيّام العطش الذي أضفته أنت ولم يضف إليها المرض ولا الفقر ولا الجوع ولا الموت، قال "الأيّام" ثمّ اكتفى بذلك. أنت أضفت إلى أيّامك ما لا يطاق وما لا يحتمَل بنيّة تقديم صورة بائسة عن الوطن وكأنك تقول إنّ التونسيّ يعيش عطشا مستديما وإنّه يُقضّي عمره كاملا باحثا عن الارتواء.

همَمْتَ بالكلام ولكنّك شعرتَ أنّ حدّة غضب الرّجل ارتفعتْ وانتبَهتَ إلى أنّ صوتَه علا ففضّلتَ أن تتركه يتآكل.

- ثمّ، ما تلك الصّورة التي اخترتها لتكون واجهة للكتاب ؟ امرأة عجفاء سوداء رقبتها مسطرة ورأسها كرأس قبّعة وساقاها معوجّتان وقدماها في اتّجاهين متعاكسين ؟ صورة منفّرة أكّدت العنوان وأكّدت مقصدك منه وأعدتَ بها امرأتنا التّونسيّة الأنيقة إلى ستّينيّات القرن الماضي حين كانت النّسوة يحملن سطولا

ويتزوّدن بالماء من حنفيّات عموميّة يتدافع أمامها المصطفّون والمصطفّات وتسيل بدفع يقطع الصّبر ؟

كان الرّجل القميء سيواصل أسئلة وملاحظاته ولكنّك قطعت عليه لذّة استنطاقك وقلتَ له :

- الآن فقط تأكّدت أنّني كنت مصيبا عندما اخترت ذلك العنوان ورشّحت للغلاف تلك الصّورة. هل تعرف لماذا ؟

لأنّني أثرتك بهمَا إلى درجة الانفعال وذلك أقصى ما يمكن لكاتب أن يطمح إليه... ينجح كاتب عندما يصل إلى درجة إثارة قارئ بشكل مّا فيبكيه أو يضحكه أو يستفزّه أو يـُركبَه الغضب أو يبعثر نسق تفكيره أو يجعله يبتسم ويضحك ... أنت انفعلت بما ضمن لي أنّ العنوان كان مناسبا وأنّ صورة تلك المرأة التي تقول أنت إنّها جوفاء وعرجاء كانت متّفقة مع العنوان. ثمّ بالله عليك يا أستاذ، هل كنت تريد أن أختار "أيّام العطش" عنوانا ثمّ أضع بجانبه أو تحته صورة عارضة أزياء أو صورة بائعة هوى أو صورة واحدة ماكياجها مثير وبدنها مكتنز ورقبتها ناعمة مستديرة ملآنة ؟

أجابكَ الرّجل وهو يحاول أن يتصنّع الرّصانة ليداريَ نفاد صبره :

- أنا أتحدّ ّث عن العنوان والصّورة معًا. هما معا ينطويان على إساءة مقصودة. ونحن سنرى بعد هذا -وقد بدأ الأمر يتوضّح منذ "موتك يقتلني" الذي ساءلك فيه زميلي "مهذّب صابر"- أنّ

الإساءة إلى الوطن وإلى الدّولة منتشرة في كلّ ما كتبتَ ... أنت لا ترى من تونس إلاّ ما فيها من نواقص بينما كان عليك أن تجمّل القبيح إن وُجد وأن تبذل كلّ جهدك في إظهار وجوهها الجميلة الكثيرة.

والآن تعال معي نمرّ إلى قصص "أيّام العطش" وسأبدأ معك من الصّفحة 103، من "تبـّا لها ما أقساها". تلك الأقصوصة التي آلمني جدّا أنّك صوّرت "الخبزة" فيها كما نقول بالعاميّة مطمحا عصيّا على التحصيل وصوّرت المواطن على أنّه لا يكفّ عن الجري وراءها من الصّباح إلى الصّباح ... ألستَ ترى أنّك تبالغ كثيرًا !؟ ألست ترى أنّ الخبز مرميّ على قارعة الطّرقات ؟ ألم تستمع منذ أيّام إلى عمّال التّنظيف بالبلديّات يقسمون أنّهم يعثرون في الحاويات على خبز طريّ وعلى بقايا غلال وعلى بسكويت وعلى المرق وعلى العجين وعلى علب يوغرت نصف مملوءة ... ؟ ألم تنصت إلى محاورهم وهو يستغفر الله كثيرا ويستعيذ به باسم كلّ التّونسيين من غضبه المستطير ؟ ثمّ تعال أخبرْك شيئا آخر، ألست ترى أنّ مقاهينا تعجّ بالحرفاء وأنّ حاناتنا مكتظّة بمرتاديها ؟كيف تمتلئ الحانات والمقاهي والمطاعم يا عبّاس إذا كان النّاس لا يجدون ثمن الخبز ؟

- أنا يا سيّد عبد الحيّ لا أتّفق معك في استنتاجك الذي ذهبت إليه. امتلاء الحانات والمقاهي بالحرفاء لا يعني أن ليس هناك

جياع يحصّلون الخبزة اليوميّة بطلوع الرّوح ويعيشون على الكفاف ولا يتمتّعون بالوجبات الثّلاثة الضّرورية.

- كان يمكن أن تتـْرك واقع هؤلاء الذي هو واقع محدود جغرافيّا وعدديّا لتتحدّث عن جوانب أخرى من حياتهم. أنسيت أنّ هؤلاء الذين تقول أنت إنّهم يجرون الوقت كلّه وراء الخبزة هم أكثر النّاس إنجابا للأطفال ؟! كيف ينام مع امرأته كلّ ليلة وينجب طفلا كلّ تسعة أشهر من يشتكي غلاء الخبز وصعوبة الوصول إليه !؟ وسأفاجئك بأمر آخر : دراسات حديثة أجراها المعهد الوطني للإحصاء أكّدت أنّ هذه الفئة من الشّعب هي أكثر الفئات إنجابا للتّوائم وحتى لثلاثة أطفال دفعة واحدة !!! وفي هذا ما يقيم الدّليل على أنّ العلم الذي لا ريب في نتائجه يفنّد قصصك وينزع عنها صفة المصداقيّة !

- ومن قال لك إنّ القصص تسعى إلى المصداقية. ينبغي يا سي عبد الحيّ أن نميّز بين التّاريخ والأدب فالأوّل محكوم بمقولة الصّدق والكذب وذلك يعني أنّك تستطيع أن تقول عن مؤرّخ إنّه كاذب وإنّ معلوماته غير صحيحة إنْ هو شوّه تاريخا أو حرّف حدثا أو أضاف أو حذف ... في حين أنّ الثّاني محكوم بمقتضى علاقة ائتمانيّة تجعل القارئ يصدّق دون نقاش ولا ارتياب ما يقوله الكاتب. وذلك معناه أنّه عليك أن تصدّقني تماما عندما أكتب قصّة بطلها عنكبوت يتكلّم بكلّ اللّغات أو امرأة تُبْعَث حيّة بعد موتها وتنتقم قتلا من قاتلها أو مغتصبها ... أو

رضيع يخاطب أمّه بمجرّد نزوله منها ويلومها على تسرّعها وعلى ولادتها قبل الأوان... أو كاتب يتحوّل بمجرّد ما يستشيط غضبا إلى أفعى فيبتلع أو تبتلع تسعة أشخاص دفعة واحدة ويرحيهم أو ترحيهم في معدتها رحيًا خلال ساعة زمن... ورغم ذلك فللأدب صلة بالتّاريخ ... وصلة بالواقع ... ودرجة معيّنة من الصّدق والمعقول. النصّ الذي لم يعجبك فيه مصداقيّة كبيرة ولن يستطيع أحد أن يقنعني بأنّ الخبزة ليست مُرّة.

- أنت لا ترى من كلّ الدّنيا غير المرارة، وهذا سبب من أسباب استغرابي، ولكن دعنا الآن من هذه الخبزة التي تقول إنّها مرّة رغم أنّه كان عليك أن تسلّم بأنّ الرّزق من عند الله وأنّ الله في سمائه العالية يرزق دون حساب من خلقهم في أرضه الواطئة وأنّني شخصيّا لم أسمع بواحد قتله الجوع ولكنّي سمعت بمن قتلهم الشّبع.

وتعال الآن نمرّ إلى قصّتك التي أسميتها "لعنة سيدي جاء بالله" والتي أتيت فيها أمرًا عجابا.

التفت الثّمانية الآخرون إلى تاسعهم تعبيرًا عن لهفتهم على معرفة هذا الأمر العجاب.

- هل تعرف ماذا أتيت ؟

- لا

- تجرّأتَ على الاستخفاف بأولياء الله الصّالحين نفعنا الله جميعا ببركتهم- أمّن على دعائه الثمانية الآخرون- ثمّ استخففتَ أيضا بعقول التونسيّين - لأنّ قصصك مكتوبة في سياقات تونسيّة بحتة - عندما جعلتهم يتبرّكون برفاة حمار ويزورونه سنويّا ويذبحون له القرابين، ويقرؤون على تابوته الفاتحة وما تيسّر من قصار السّور... عدت بنا إلى الجاهليّة الأولى وأنكرت قصدًا ما أصبحنا عليه من علم وتقدّم ... عيْب يا عبّاس أن تجعلنا نحن سلالة الحضارات العريقة والثّقافات المتعاقبة نزور قبور البهائم ... العيْب ليس فيك وحدك ... العيْب أيضا في الجهة التي رشّحتك لنيل جائزة عليّة ... لو لا ألطاف الله واهتداؤنا إلى قراءة كتبك قبل حصولك على الجائزة لكانت طامّة كبرى. نعم. طامّة. كارثة فعلا أن يحصل على جائزة الآداب واحدٌ ... الرّجل عنده شاذّ أو أبله والمرأة داعرة ومبذّرة والشّعب يقرأ الفاتحة فوق قبور البهائم.

- تلك القصّة لم أتخيّلها... أو لم أتخيّلها كلّها ... وشكرا لموروثنا الشّعبيّ الزّاخر بالأمثال والحكايات الذي أطلعني على ما يشبهها وأتاح لي أن أوظّف منه ما يمكن أن يكون أقصوصة تمتع قرّائي وتفيدهم ... ولئن لم تفهم منها غير أنّني قدّمت التّونسيّ على أنّه ساذج يتبرّك بالأحمِرة فلا تنس أنّي قدّمته أيضا على أنّه متعلّم متفطّن لتلك الظّواهر ومندّد بتلك العادات وناقد لها.

- كنت تسرد وكنت تصف ولم تكن تنقد.

- النقد كان هناك. كان في السّرد وكان في الوصف.

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. أنت عنيد. أنت عنيد ومكابر. وإنّي لأنصحك أن تتخلّى عن هذا العناد حتّى تنتهي الأمور معك بسلام. المسألة خطيرة. وما كتبته يدعو إلى الشّكّ حتّى في إسلامك وفي وطنيّتك ... ولكن يبدو أنّك لا تقدّر خطورة المسألة.

ثمّ، ملتفتا إلى الرّئيس :

- سأكتفي مبدئيّا بهذه الأسئلة وإنّي لأشكرك شخصيّا لأنّي لاحظت أنّك سجّلت كلّ ما قيل وأشكر زملائي على طول صبرهم وعلى اهتمامهم الشّديد.

طوى سي عبد الحيّ ما كان مبثوثا أمامه من أوراق ثمّ مدّ المكرفون إلى رئيس الجلسة.

لم يعلّق السّيّد الرّئيس على ما استمع إليه واكتفى بأن قال :

- سنكتفي اليوم بهذا القدر. لا نريد أن نرهقك أكثر ... ولا شيء يدعونا إلى العجلة. وغدا نواصل مُساءلتك حول ما يتيسّر من كتبك الأخرى.

قال ذلك وضغط على زرّ فجاء العون الذي أدخَلَكَ في الصباح ليقودك من جديد في اتّجاه القبو الواطئ المظلم حيث الجماعة ينتظرون على لهب.

كنتُ متعبًا ... كنتُ أغلي ... أتآكل من الدّاخل، حزينا ... وبي همّ الدّنيا كلّه ... لم يقلقني أنّني سئلتُ عن كتب كتبتها ولا دخل لأحد فيّ وفيها ... ولم يقلقني أنّني أسأل من قبل زمرةٍ من الرّجال والنّساء على قدر كبير من الغباء والحمق ... ولم يقلقني أنّ المسألة لا تستحقّ كلّ هذا الذي يُفعَلُ بي ... ما أقلقني أنّني أحسست لأوّل مرّة أنّ ثمّة ما هو أسوأ من الموت ... إنّه سلب الحرّيّة ... أن تكون ميّتا تنعم هناك برحمة الله خير من أن تكون حيّا بلا حرّيّة، خير من أن تقاد مسلوب الإرادة وتخضع لاستنطاق طويل وتُحرَمُ من بيتك وأهلك وجوّالك وحتّى من سبل للدّفاع عن نفسك.

سألت الجماعة :

- ألا يزوركم هنا أحد ؟

فردّ أحدهم :

- القانون يمنع الزّيارة في مثل هذا الوضع ... أنت موقوف على ذمّة التّحقيق وزيارة الأهل لا تكون إلاّ لمن مرّ من التّحقيق هنا إلى السّجن هناك.

أحسست بكتلة الهمّ تكبر في صدري ثمّ أحسستها أكبر منه وأحسست به أصغر من أن يحويها... وشعرت بشرايين رأسي تتحرّك حتى خلتها ستخترق الجلد وتندفع إلى الخارج... تنهّدت ثمّ تأفّفت. ثمّ اضطجعت وأخذت أحدّق في السّقف الواطئ... أخرجَ أحد الرّفاق الثلاثة علبة سجائر فأشعل له وللاثنين قبل أن يمدّ إليّ واحدة على أهبة الإشعال ولكنّي اعتذرت. فهِمَ الجماعة أنّني لا أدخّن وأنّني لا أطيق رائحة السّجائر فأسرعوا يمصّون سجائرهم مصّا سريعا متتاليا ويبتلعون كلّ دخانها حتّى يقلّصون من زمن تدميري واستيائي ... تحوّل السّقف الواطئ إلى كتلة من السّحاب الكثيف... حدّقت فيه طويلا فأنساني التّحديق رائحة الدّخان... واستطاعت عيْناي أن تنتبها إلى صور عديدة... رأيت زوجتي تتململ في قاعة جلوس تنتظر أن يدعوها للدّخول المحامي ... رأيتُ عمّي يطلب من المصلّين أن لا يغادروا المسجد قبل أن يؤمّنوا جميعا على دعاء لي بأن تـُفكّ سريعا كربتي... رأيت جماعة من زملائي وأصدقائي يحرّرون لائحة تنديد ويرسلونها إلى إحدى الصّحف... رأيت مقدّم البرنامج الإذاعي يسبّني ويشتمني لأنّني وعدته أن أكون ضيفا على مستمعيه ثمّ لمْ أفِ بوعدي ولم أعتذر عن الموعد... ورأيت أقارب وأصدقاء لي يتجمّعون ثمّ يشرعون في تأويل ما حدث لي... كنت سأستمع إلى كلّ تعاليقهم ولكنّ انفتاح الباب فجأة أخذني من تلك المشاهد وحرمني من تلك التّعاليق.

جيء إلينا بكسكروتات وقوارير ماء أخرى. أتينا على الأكل رغم أنّه كان بلا طعم ثمّ تجرّأ الجماعة على سؤالي عمّا جرى معي اليوم.

قال أحدهم :

- قد تُدعَى لجلسة استنطاق مسائيّة. هذا يحدث أحيانا.

اِنكمشت في فراشي البارد بحثا عن إغفاءة تعيد إلى ذهني صفاءه وتبعد عنّي التّوتر وتحفّزني للاستعداد إلى أسئلة قادمة أخرى يبدو أنّها ستكون أشدّ وطأة وأكثر عددا وأبلد وأركّ.

عاودتني صورة زوجتي تترجّى أحد المحامين أن يسرع بتسريحي سراحا دائما أو وقتيّا أو شَرطيّا أو أن يُسْرع في أن يحصل لها على إذن بزيارتي ... وعاودتني صورة أقارب لي وجيران وهم يتحلّقون ويؤوّلون ما حدث لي وشوشةً.

كانت أصواتهم خافتة ولكنّي استطعت أن أسمع كثيرا من تعليقاتهم :

- أنا لا أستبعد أن يكون شريكا في عملية تزييف العملة التي سمعنا تفاصيلها منذ أيّام. للرّجل ديار ثلاثة وكشك لبيع الجرائد والمجلاّت وسيّارة فارهة ... من أين له هذا ؟

- أنا أستبعد حكاية العُملة. أرجّح أن تكون القضية أخلاقيّة. يبدو والله أعلم أنه على علاقة بامرأةِ رجل مهمّ.

- لو كان الأمر كذلك لما انشغلت زوجته بقضيّته. ألمْ تروْا كيف أصبحت كالمجنونة تخرج من بيتها صباحا ولا تعود إليه إلاّ ليلا بعد ما تكون قد اتّصلت بأكثر من محام وبشخصيات أخرى ؟

ولم يتركني انفتاح الباب أتمتّع ببقيّة التّأويلات. هببت واقفا وقلت قبل أن ينطق العونان :

- نعم.

فردّا دون أن يلتفتا إليّ :

- لم نأت إليك. جئنا لهذين.

وأشارا إلى منصور والنّاصر.

قلت لمحروس الحفيان بعد أن ذهبا :

- وأنت، هل شرعوا في استنطاقك ؟

- لا. يبدو أنّ حكايتي ستطول.

- ستعترف ؟

- ليس لديّ حلّ آخر. ولكنّي سأخصّك بسرّ. لديّ وعود بأنّ العقاب سيكون شكليّا إن أنا امتنعت عن الإدلاء بأسماء شركائي ولم أظهر منهم في الصّورة أحدا.

- الأمر يا محروس مرتهن بدرجة صدقهم وإنّي لأتمنّى أن يكونوا صادقين.

- أتمنّى ذلك.

ثمّ استأذنني في أن يشعل سيجارة ... التفتّ إلى الجانب الآخر من القبو ورحت أحاول أن أنام... شرعت ذاكرتي تستعرض وهي بين النوم واليقظة الحوار الذي دار بيني وبين اثنين أو ثلاثة من التّسعة المجنّدين لمساءلتي حول ما كتبت. واستطعت رغم الحصار الذي كان يضربه حولي الحزن أن أنعم بابتسامة أو أكثر. يا الله ! الأمر وصل إلى حدّ التّشكيك في إسلامي وفي وطنيّتي ! وإلى درجة اتّهامي بكوني سوداويّا لا أرى من الدّنيا إلاّ نصفها المظلم ! من أين جاؤوا بكلّ هذا الدّهاء؟ ولماذا لم ينتبهوا إلى أنّهم هم السّوداويون لأنّهم لم يجدوا في ما قرؤوا لي غير نقاط السّواد ؟

قال الرّئيس :

- التّوبة يا عبّاس تجبّ ما قبلها. اكتب لنا ما يفيد أنّك لنْ تكتب أبدا ووقّع لنا عقدا على تأليف كتاب تملأه بمزايا هذا العهد السّعيد وما يزخر به من إنجازات عملاقة وما يبشّر به من مستقبل مبهر. فقط، اكتب أنّك لن تكتب غير هذا الكتاب ووقّع أمامنا الآن عقد التّأليف وسيطلق سراحك فورًا.

فكّرت مباشرة في زوجتي وفي ولدي وبنْتيّ وفي أمّي العجوز، في عملي الذي قد لا أعاد إليه، في صحّتي التي ستتدهور

حتما إن أنا ظللت رهن الحبس والتّحقيق. تردّدت كثيرا، ثمّ قليلا، ثمّ قلت لهم بوضوح لا لُبْسَ فيه :

- سأكتب لكم ما يفيد أنّني سأقلع عن نهجي السّابق في الكتابة وهاتوا العقد الجديد أوقّعه.

هلّل التّسعة فرحا وانخرطوا في موجة تصفيق عنيفة. أيقظني التّصفيق من غفوتي فهببت واقفا وبي كلّ ذعر الدّنيا. أسرع إليّ محروس من أقصى الدّهليز وشرع يربّت على كتفيّ ويطمئنني ويقرأ على رأسي قصار السّور. ثمّ تناهت إلى سمعينا أصوات أقدام تضرب على الأرض بسرعة وجاء العونان ومعهما النّاصر ومنصور اللّذيْن أصبحا محلّ مساءلة لمجرّ أنّهما عبّرا بأسلوب سلميّ عن جوعهما... للحظة جاءني سميح القاسم يقول لي :

وطني بستان لوز وإجّاص وعنب

وأبي كان الملك

وأمّي الملكة

وأنا كنت أرعى الغنم

... !!!

كان المفروض أن ننقضّ عليهما - محروس وأنا - نسألهما عمّا سُئلا عنه وكيف سُئلا وما تقرّر بشأنهما... ولكنّ النّاصر ومنصور

كفيانا مشقّة استفسارهما إذ تولّيا هما نفسيهما تبادل الأسئلة لأنّهما لم يكونا معا ولأنّ كلاّ منهما دعي على حدة. تبيّن لهما ولنا أنّ الأسئلة متشابهة وأن أهمّها كان: من وراءك؟ من دفعك إلى الاحتجاج ؟ كيف تجرؤ على الاعتصام أمام مقرّ الحزب الحاكم ؟ ... بما يفيد أنّ الأبحاث تسعى إلى أن تضفي على القضيّة صبغة سياسيّة لا تهويلا للقضيّة في حدّ ذاتها بل ضمانا لتشديد العقاب. المهمّ أنّ الاثنين سيمرّان إلى المحكمة بتهمة اقتحام مقرّ الحزب الحاكم والإساءة إلى سمعة الدّولة ومنع موظّفين من أداء عملهم بشكل طبيعيّ والتسبّب في تجمهر النّاس بشكل فوضويّ أمام إدارة محترمة وتلويث مظهر شارع رئيسيّ بنصب خيمتيْن وعدم الانصياع لأوامر إخلاء المكان.

قال محروس :

- هل تقبلان منّي النّصح ؟

ثمّ أقنعه صمتهما أنّهما في حاجة إلى كلّ كلمة تعينهما على ما هما فيه، فواصل قائلا :

أنا أنصحكما والرّأي لكما، ولسي عبّاس أن يدلي برأيه معنا، أن تعبّرا عن أسفكما وأن تتعهّدا بعدم معاودة الكَـرّة. البطالة أفضل من السّجن، وعائلتاكما في حاجة إليكما والتّهمة التي وُجّهت إليكما عقابها الإعدام بالحياة أو بالموت ...

لم يزدْ أحد عمّا قال محروس كلِمة ... تصاعدت من الأفواه آهات عميقة طويلة ثمّ تنهيدات حارّة قصيرة متتالية ثمّ خلدتْ الأجساد إلى ما يشبه النّوم، ويبدو أنّ إغفاءة أخذت الجميع في نفس اللّحظة إلى درجة أن لا أحد انتبه لانفتاح الباب ومجيء أحد الأعوان بكسكروتات العشاء ثمّ إغلاقه وراءه.

dimanche 21 mars 2021

صالح مبروكي

SALEH MABROUKI

salehymabrouki@gmail.com

tél. +216 98 603 987

انفتحت أعيننا الثّمانية بانفتاح الباب الحديديّ ومجيء عون أمن يحمل صينيّة عليها خبز يابس وكأس بلاستيكي وقارورة حليب.

قال لي وهو يهمّ بالخروج :

- سأعود إليك بعد ربع ساعة لمرافقتك إلى الجماعة. لقد بدؤوا في الحضور.

ومض في داخلي إحساس بالفرح لأنني لم أُنْسَ ولأنّ هذا اليوم لن يضيع هباء، ولأنّ الأبحاث ستتقدّم ولأنّ كتابيْن على الأقلّ سيكونان بعد قليل محلّ مناقشة بما يعني أنّنا سنصل إلى شطر أيّام البحث والتّحقيق والحجز. سألت نفسي : هل سيتناول الجماعة الكتب وفق تاريخ صدورها أم وفق جنسها الأدبي؟ واستنتجت تبعا لذلك أن تدور المساءلة حول رواية "النّسيان" أوّلا وقد نمرّ بعدها إلى قصص "لا موت بعد اليوم" أو أن يتناول الاستنطاق"لا موت بعد اليوم" ومن بعده "رأسي الجديد". ثمّ رجّحت احتمال احترام تاريخ صدور الكتب لاعتبارات عديدة أهمّها أنّ الجماعة تبحث خاصّة في تطوّر درجة الإساءة إلى الوطن وإلى المجتمع. كما يقولون – من كتاب إلى كتاب-.

استغربت لاستكمال النّصاب إذ كنت أتوقّع مثلا أن ينسحب السيّدان اللّذان تولّيا جدالي حول القصص الأولى ولكنّهما كانا

حاضريْن وبيَديْهما كبقيّة الجماعة أقلام للتّسجيل وأوراق للتّحبير.

قال الرّئيس بعد أن نزع عن عينيه نظّارتيه :

- أهلا، سي سليمان.

فأجبته :

- أهلا بكم أنتم أيضا.

- كنت صريحا معنا طيلة يوم أمس ورغم أنّني لا أنصحك بالصّراحة لأنّها ستضرّ بكَ فإنّني أحيّيك عليْها.

ردَدْت :

- شكرًا. أنا لا أتصنّع شيئا. لمْ أستورد الصّراحة ولمْ أبتعها من أحد. إنّه طبع فيّ. أنا هكذا ولا أستطيع أنْ أكون إلاّ أنا.

بسط الرّئيس أوراقا أمامه، قرأ منها صامتا بعض السّطور.

ثمّ رفع رأسه الأشيب نحوي :

- سنسائلك اليوم بخصوص كتابك الثّالث "النّسيان" وسنوكل الأمر إلى زميلتنا الفاضلة السّيّدة "زهوة الزّاهي"، أمّا نحن فسنكتفي بالاستمتاع والتّسجيل.

وقبل أن يمدّ إليها المكرفون،سألني :

- رواية، أليس كذلك ؟

- نعم، رواية.

- الكلمة إليكِ سيّدة "زهوة"، تفضّلي.

تناولت ذات الشّعر الأسود كتابي بين يديها ... قلّبته على وجهيه باشمئزاز ... نظرت إلى صورته التي تتوسّط وجهه وإلى صورتي التي تعلو قفاه ثمّ رمقتني باحتقار شديد وقالت :

- على خلاف زميليّ، لن أبدأ معك بالعنوان فهو مبدئيّا لا ينطوي على إساءة أو تجريح ولا يحيل على بذاءة ولا يستهدف أحدا. النّسيان حالة تعترينا جميعا وهو أيضا آفة العلم والمعرفة ... نشكو منه أحيانا ونحتاج إليه أحيانا أخرى.

ورغم أنّني لا أرى أنّه يصلح عتبة أولى لعمل أدبيّ لاعتبارات عديدة، فإنّني لن أناقشك فيه. ما أثار انتباهي وأطار عنّي النّوم منذ قرأت كتابك ورفع حتّى من ضغطي هو ما جاء بعد العنوان أيْ ما حواه كتابك الذي تقول أنت ويقول الذين كتبوا عنه إنّه رواية.

- اللّطف عليك. قال لها رئيس الجماعة.

- شكرا لك سيّدي الرّئيس، ولكنّي والله أقول الحقيقة.

سألتها لأستفزّها أكثر :

- ما الذي لم يعجبك يا سيّدة زهوة في الكتاب ؟

فردّت :

- بلْ قلْ هل ثمّة ما أعجبني فيه ! لا شيء يا سيّدي في روايتك يمكن أن يكون شرفا ومفخرة للثّقافة التّونسيّة ... وسأبدأ بأوّل ما أثار غضبي. كيف يا سيّد سليمان جرؤت على أن تحطّ من قيمة الفلسفة إلى ذلك الحدّ ؟ بطل روايتك أستاذ فلسفة - هنا قاطعتها لأوضّح أنّه حاصل على الأستاذيّة في الفلسفة ولكنّه لمْ يُدْعَ بعد إلى ممارسة التّدريس- أإلى هذه الدّرجة صارت الفلسفة رخيصة لديك وصار المختصّ فيها الذي عادة ما ندعوه كالطّبيب حكيما، منكبّا على حكّ أوساخ النّاس وتنظيف أبدانهم في حمّام شعبيّ ؟ "طيابا" بلهجتنا التّونسيّة ؟

- ذلك يا سيّدتي قدره. لو كان أعْطِيَ حقّه في الشّغل لما التجأ إلى العمل في حمّام شعبي.

- أنت تسرّعت. زججت به بمجرّد تخرّجه في ذلك الحمّام وأقمت علاقة لمْ أرَ أغرب منها إذْ ربطت بين الفلسفة والوسخ وربطتَ أيضا بينها وبين الفساد حين جعلت ذلك الشّاب الذي كانت تنتظره ولا شكّ حياة نظيفة زاهية يقبُر طموحاته ويرضى أن يكون طيّابا أو كيّاسا ثمّ جعلته راضيا بأن يرابط في الحمّام إلى ما بعد انقضاء الوقت ليقوم على خدمة المالك وندمائه ورفيقاتهنّ الفاسدات !!!

أهكذا تقدّم أساتذتنا للقرّاء ؟ أنا أتمنّى من كلّ قلبي أن لا يكون كتابك قد تخطّى الحدود حتى نضمن على الأقلّ أن يظلّ غسيلنا منشورا بيننا لا يطّلع عليه سوانا.

- اطمئنّي سيّدتي، تلك الرّواية أنجِزَتْ حولها دراسات تخرّج بجامعات عربيّة وسأضيف إليك أنّ الدّراسات أنجزتها مجموعة من الطّالبات أشرفت عليهنّ أستاذتان في مثل سنّك بل إنّي لكأنّي أرى إحداهما أمامي لشدّة ما بينكِ وبينها من شبه.

أغضبها ردّي وأربكها ولكنّها تماسكت وقالت :

- أنت تعرف أنّ الشّاذّ يُحفَظ ولا يُقاس عليه.

- لاحظي أنّك تتّهمين أستاذتين جامعيّتين واللّجنة العلميّة التي تقف وراءهما بالشّذوذ.

- هو رأيي وأنا حرّة فيه ... ولكن لنعد إلى الرّواية إن صحّ أن نسمّيها كذلك، ودعني أقول لك إنّك بالغتَ في الإساءة إلى فئة من هذا الشّعب الذي تقول إنّك تحبّه وتكتب لأجله، إنّها فئة المعينات المنزليّات. ها هنّ في روايتك يقدّمن علاوة على خدمة البيت خدمات أخرى ويسرقن من النّساء أزواجهن ثمّ لا يتورّعن حتّى عن أن يجمعن جهرا بين أكثر من رجل ... ودعني أقول إنّك أسأت إلى برامج التعليم حين وصفتها بالجوفاء وحين جعلتها محلّ جدل في الحمّامات الشّعبيّة وحين تجرّأت على اتّهام الخرّيجين من الجامعات بالجهل ومحدوديّة مستواهم

القرائي والكتابي. ودعني أقول إنّك أسأت إلى تراثنا المليء بالحِكم والمواعظ والحكايات الجميلة حين لم تستحضر منه غير حكايا لا أدري من أين التقطتها ولا كيف سمحت لنفسك بأن تشوّهها وتخرجها للقارئ على تلك الصّورة.

وأنت أسأت كثيرا إلى كتب منزّهة فيها شفاء للنّاس حين جعلت يد أحد من يستمدّون منها حِكمَهم وحروزهم تتردّد بين فخذي زوجته الممدّدة على يمينه والدّواة المفتوحة أمامه ...ودعني أقول لك أيضا إنّك جعلت من الرّشوة قاعدة في التّعامل لا استثناء نادرا لا يقاس عليه ...

بصدق أنا متألّمة جدّا. أهذا مستوى كتّابنا ؟ أهكذا تفهمون الإبداع ؟ ألا يكون الكاتب كاتبا إلاّ إذا انبرى يصوّر السّواد وينشر الغسيل ويسيء للوطن ويصف الأجساد ويثير الشّهوة ؟ أنكون مبدعين حين نجعل من أستاذ فلسفة طيّابا في حمّام بل وقائما على خدمة الزّناة والسّكارى ؟ ألا يجدر بنا يا سي سليمان أن نكون - ولم تجد الكلمة المناسبة بالعربيّة فنطقتها بالفرنسيّة - أن نكون reconnaissant. فبادر رئيس الجلسة بتعريبها فورا مشيرا إليها - معترفين بالجميل- فشكرته واستأنفت قائلة : ألا يجدر بنا أن نعترف بالجميل لهذا الوطن الذي علّمنا ورعرعنا وربّانا صغارا فنخرجه في ما نقول وما نكتب على صورة زاهية ؟ ألا يجدر ... هنا قاطعتها :

- ألا يجدر أن ترتاحي قليلا ريثما أجيب على بعض أسئلتك ؟

- أجبْ

- بخصوص العلاقة بين الفلسفة والوسخ، الأمر واضح جدّا. ذلك الأستاذ الذي لم تُتَح له فرصة تهذيب عقول النّاس وترشيد تفكيرهم انبرى ينظّف أبدانهم مستغلاّ كلّ فرص لقائه بحرفائه للحديث حول قضايا المجتمع بما يساهم في تحريك العقول في اتّجاه التّفكير والنّقد وطرح البدائل.

أمّا المعينات المنزليّات فهنّ لسن ملائكة. كثيرات منهنّ شريفات وكثيرات منهنّ يتجاوزن إعانة مشغّلاتهن إلى تمتيع الأزواج. هل نلوم الكاتب لأنّه تسلّل إلى زوايا مختبئة في حياتهنّ أم نلوم المجتمع الذي يستغلّهنّ أم نلوم ذوي الأمر منّا لأنّهم ساهموا في دفع بنات كالورود إلى التّمعّش بأجسادهنّ تحت غطاء اسمه الإعانة المنزلية ؟ أمّا برامج التّعليم فأنا يا سيّدتي أدرى بها منك. إنّها جوفاء فعلا وفي حاجة إلى إصلاح جذريّ وشامل. انظري إلى مستوى طلبتنا وأساتذتنا وستُدْركين أنّ الإصلاح بات ملحّا جدّا ... أمّا التّراث وتحويره الذي أسميته أنت تشويها فليس ملكا لكِ ولا لغيركِ ... إنّه لنا جميعا وأنا وظّفته بما اقتضاه سياق الرّواية. ينبغي أن ندرك أنّ استحضاره كما جاء في مصادره يعدّ مجرّد نسخ ... وأنا يا سيّدتي أكتب، أبدع، ولكنّي لا أنسخ ... من حقّي أن أحذف

وأن أضيف وأن أحوّر فأنا كاتب ولست مؤرّخا. واسمحي لي بأن أصارحك بأنّني ضحكت في داخلي كثيرًا عندما انبريْتِ تدافعين عن كتّاب الحروز أو ما يُسمّى بكتب الشّفاء ...

أنا، نكاية فيهم وتعبيرا منّي عن اقتناعي بعدم فاعليّة كتبهم وعن افتقادهم الصّدق والمصداقيّة جعلت واحدا منهم يكتب بيد وسخة ... ذلك قصدته يا سيّدتي ولم يكن اعتباطا.

وأمّا عن الرّشوة التي أزعجك اعتباري إيّاها قاعدة لا استثناء فهي كذلك ... أنتِ تحبّين لهذا الوطن أن يتقدّم ولهذا المجتمع أن يبرأ من علله ... أنا أيضا أحبّ ذلك. الفرق بيننا أنّني منكبّ على إظهار مواطن التخلّف ومواطن الاعوجاج في حين أنّكِ منكبّة عليّ وعلى أمثالي تتفحّصين ما نكتب وتؤوّلينه لصالح رؤاك المحدودة جدّا، أرجوكِ، وأرجوكم أنتم أيضا... الوطن ليس لأحد منكم ... إنّه لنا جميعا. لا أحد له الحقّ في أن يتّهمني بخيانته. إنّني أكتب له، لينهض، ليبرأ، ليستقيم.

- ولكنّك تُصوِّر هذا المجتمع على أنّ رجاله عاجزون وعلى أنّ نساءه ناقصات عقل ودين وعلى أنّ مثقّفيه مُحبَطون، وعلى أنّ تراثه مدعاة للسّخريّة وعلى أنّ الشّذوذ فيه طال الصّغار والكبار وعلى أنّ الانحراف سرَى في كلّ مكوّناته. أهكذا يبرأ المجتمع ويتخلّص من علله ؟ أهكذا نحبّ الوطن ؟

- نعم، هكذا، لا يمكن أن نمرّ إلى العلاج قبل الفحص. لا بدّ من الفحص الدّقيق والتّشخيص المتأنّي.

- أنا لا أعتقد أنّه يمكننا أن نتقدّم ولو قيد أنملة بكتب كهذه وبأفكار كالتي تسوّقها وبانتقادات كالتي تعجّ بها قصصك ورواياتك. أنت تسخر، تسخَر كثيرا. والسّخريّة سلوك لا يمكن إلاّ أن يشدّ إلى الوراء.

- السّخرية يا سيّدتي موقف. أنا أدرك أنّني أسخر ولكنّني أفعل لأبلّغ صوتي ويبدو أنّ صوتي وصلك بشكل آخر. الأدب يا سيّدتي لا يكون أدبا إلاّ إذا جمع بين المتعة والإفادة ولعلّ السّخريّة كفيلة بأن تحقّقهما معا.

أدرك الرّئيس أنّ السيّدة زهوة استنفدت كلّ ما أعدّت من أسئلة ومن ملاحظات فالتفت إليها يسألها :

- أنهيتِ ؟

فردّت ملوّحة بذراعها في الفضاء :

- سأكتفي مبدئيّا بهذا القدر. شكرا لك ولزملائي على سعة صدوركم وملازمتكم الحياد وتسجيل كلّ النقاش الذي دار.

قالت ذلك ومدّت المكرفون إلى رئيس الجلسة.

- سيّد سليمان، مازال أمامنا متّسع من الوقت لنسائلك بخصوص كتابك الرّابع : "لا موت بعد اليوم". وسأحيل الكلمة مباشرة إلى زميلي سي الرّبْعي ليتولّى جدالك فيه.

السيّد الرّبْعي كهل لم تعدْ تفصله عن الشّيخوخة إلاّ محطّات قليلة. هالني وأنا أتأمّله كبر رأسه وانتفاخ أوداجه وضخامة كرشه، اضطرّ حين انتبه إلى أنّ كرشه ذاك ملتصق بطاولة المنصّة إلى أن يحرّك كرسيّه في اتّجاه الخلف قليلا حتّى يصبح أكثر حرّيّة وراحة.

- سيّد عبّاس.

- نعم.

- لا موت بعد اليوم ؟ هكذا دفعة واحدة ؟ تأكيد لا رجعة فيه ... لمْ تحاول أن تحوّره أو تلطّفه بنقطة تعجّب أو نقطة استفهام ؟ حتّى الكتّاب الملحدون الكافرون بالله وبالقضاء والقدر وبالموت وبالحياة الآخرة لمْ يجرؤوا على أنْ يتخيّلوا هذا الأمر. هكذا، وصل بك خيالك الذي لا أدري كيف أصفه أن تتخيّل أنّه يمكن أنْ تمتدّ الحياة الدّنيا إلى ما لا نهاية بما يعني أيضا أنّك ألغيت الجزاء والعقاب والجنّة والنّار ويوم القيامة !؟ العنوان الذي اخترته جريمة والأقصوصة التي ارتبطت به فيها إلحاد واضح.

كان سي الرّبْعي سيواصل حديثه عن العنوان والأقصوصة غير أنّي ولإحباط همّته وإثناء عزمه سألته :

- وأين يكمن المشكل ؟ وهل كان عليّ أن أستشيرك قبل أن أضع العنوان ؟ ثمّ بالله عليك أجبني : أنت مثلا، هل تحبّ الموت؟ هل تتمنّاه ؟

- إنّه حقيقة والحقائق ليست مرتهنة بالحبّ ولا بالكره ولا بالتمنّي.

- أتّفق معك في أنّ الموت حقيقة ولكن الأقصوصة التي أثارت حفيظتك خيال. كلام في كلام. فهل يصحّ أن نحاسب النّاس على أخيلتهم وعلى أمنياتهم ؟

- للخيال حدود. تخيّل أنّك زرت بلادا عجيبة. تخيّل أنّك أصبحت بجناحيْن، تخيّل أنّك ستدخل السجن وستقضي فيه عشر سنين. أمّا أن تتخيّل أنّ الحياة أصبحت لا تنتهي بالموت فذلك اعتراض صريح على النّصّ الدّيني الذي نقدّسه جميعا. أنا يا سيّد عبّاس لست ضدّ الخيال. لك أن تتخيّل ما يحلو لك ولك أن تجنّح بخيالك بعيدًا بعيدا ... ولكن لا ينبغي أن تكتب كلّ ما تتخيّل أو تقول كلّ ما تتوهّم أو أن تصرّح بكلّ ما تتمنّى. هذه الأقصوصة وغيرها آثار ستظلّ تدينك العمرَ كلّه وحتّى بعد مماتك الذي تتوهّم أنّه لن يأتي.

- يبدو أنّنا لن نتّفق حول هذه المسألة فهات ما لم يعجبك عدا حكاية الحياة التي تمنّيت شخصيّا لو تطول كثيرا.

ثمّ لا أدري كيف قفزت إلى ذهني صورة أخرى فقلت :

- دعني قبل ذلك أذكّرك بأنّ الحياة الآخرة حياة لا موت فيها. لماذا لم تطرح السّؤال حول تلك الحياة التي ستمتدّ إلى ما لانهاية. ولعلمك، ذاك السّؤال ألحّ كثيرا على كثير من الفلاسفة ورجال الدّين.

- تلك مسألة أخرى وأنا لست خياليّا مثلك لأقارن الدّنيا بالآخرة وأجرؤ على ما جرأتَ عليه.

والآن، دعنا نمرّ إلى مسألة أخطر، دعنا نمُرّ إلى قصّتك الثانية بهذا الكتاب والممتدّة من الصّفحة 12 إلى الصّفحة 20 والتي عنوانها : "الحرب ورمضان"... كم فاجأتني قصّتك تلك !!!

- فاجأتك ؟!

- نعم. استطعت أن تستبق الأحداث وتتنبّأ بمحاكمة شبيهة جدّا بهذه التي نجريها لك الآن ولكنّك وكعادتك لم تكن مقنعا رغم أنّك أوهمت القرّاء أنّك خرجت منتصرًا.

- أنا لم أوهم أحدًا. سياق النصّ هو الذي أقنع القرّاء. ولست أدري لماذا لمْ تقتنع أنت ... ولست أدري أيضا لماذا تعتبر أقصوصة "الحرب ورمضان" أشدّ خطرًا من التي فيها حديث عن حياة مديدة لا موت بعدها رغم أنّ في الأولى جرأة حسب زعمك طبعا، على المقدّس !!!

- سترى ذلك بعد حين، المهمّ، أنت قلت إنّه وقع استدعاؤك على عجل للتّحقيق معك حول مقالين صدرا لك بجريدة اسمها "صوت الحقّ" ؟

- نعم ، قلت ذلك.

- ولكنّك حقّرت كثيرا من شأن المحقّقين وشكّكت حتّى في مستواهم القرائي حين جعلتهم لا يفرّقون بين الحرب والحزب أو بين الرّاء والزّاي.

- هذا صحيح، قلت إنّه وقع استدعائي لأنّ عيون الدّولة قرؤوا لي مقالا بدا لهم أنّه "لهذه الأسباب أكره الحزب" في حين أنّ العنوان كان "لهذه الأسباب أكره الحرب" بما يعني أنّ النّقطة فوق الحرف الرّابع من الكلمة الأخيرة زائدة وكان عليهم قراءة المقال دون الاكتفاء بالعنوان ... ورغم ذلك، فأيّ جرم أرتكبه حين أكره الحزب ؟ ألست حرّا في أن أكره وأحبّ ؟

- أنت حرّ ما لمْ تتعدّ حرّيتك صدرك إلى أثر منطوق أو مسموع. ذلك المقال أحدث بلبلة وعُزِلَ بسببه وسببك رئيس تحرير ومساعدٌ له ... ثمّ إنّه كان سببا في أن يصبح الحزب محلّ نقاش في الزّوايا والمقاهي ...

- المسألة لا تتطلّب كلّ هذا التّهويل.

- أنت عنيد جدًّا وأنا واثق أنّ من تعمّد نسيان النّقطة الملعونة التي تتحدّث عنها هو أنت لا محرّر الجريدة... والدّليل أنّك كتبت مقالا آخر سمّيته : "أعوذ بالله من رمضان" !

- نعم، كتبت هذا.

- ثمّ حاولت الإفلات من التّهمة حين تيقّنت أنّها ثقيلة بادّعائك أنّ رمضان المقصود هو ابنك وليس الشّـّهر الكريم !!!

- Tout à fait، ولكنّه لمْ يكن ادّعاءً.

- ها أنت في نصّ واحد تسخر من رموز الدّولة وتتّهمهم بالجهل وتصرّح بكرهك للحزب وتجاهر بعدائك لشهر مقدّس وتتسبّب في انتشار جدل فيه مساس بهيبة الدّولة.

- قل ما تريد ولكن، لا تنس أنّك تحلّل نصّا قصصيّا بما يعنيه ذلك من وجود نسبة للخيال وبما يعني أنّ ما حدث كتابة لم يحدث ولن يحدث بالضّرورة واقعا.

- وسنرى الآن ما ستقول يا سي سليمان في قصّتك "اليوم الأسود في حياة الحيّة" الواقعة بين صفحتيْ 44 و 50.

- ما الذي لم يعجبك في تلك القصّة ؟

- الذي أعجبني أنّك لم تتجرّأ على المقدّس ولا على هيبة دولتنا ولكنّك تجرّأت على تشبيه أمريكا - الدّولة العظمى التي

لم تنفكّ تأخذ بأيدينا- بالحيّة ! وجعلت مسلّحين يطلقون عليها النّار ويقطعون ذيلها الطّويل إربًـا إربـًا.

بدا على الثّمانية الآخرين ما ينبئ بأنهم لمْ يفهموا شيئا فالْتفتوا تقريبا في الثّانية نفسها إلى الرّئيس الذي الْتفت بدوره إلى سي الرّبْعي، الذي حرّك رأسه علامةً على أنّه سيتولّى التّوضيح.

-إنّه يقصد ما حدث في أمريكا يوم 11 سبتمبر ...

- ولكنّ تلك الأحداث وقعت فعلا !!

- أنت غريب جدّا ... تعلّل ما لم يحدث بأنّه خيال، وتعلّل ما حدث بأنّه حدث فعلا ويبدو أنّ ذهنك مغيّب تماما عن وظيفة الأدب الحقيقيّة بدليل أنّك مذبذب بين تخيّل ما لا يحدث وتسجيل ما يجري.

- فهل لي أن أعرف منك وظيفة الأدب ما دمت تراني قاصرًا عن إدراكها ؟!

- وظيفة الأدب هي الإمتاع ولا ينبغي أن تتجاوزه إلى ما سواه.

- هذا يعني أنّك لا تجد مثلا فرقا بين الأدب والرّقص ؟

اغتاظ الرّجل وبدا على الجماعة أنّهم ساندوه في غضبه إذ زمّوا جميعا شفاههم في لحظة واحدة.

- المتعارف عليه أنّ الكتاب رفيق وأنّ الأدب إمتاع ومؤانسة وتسلية وتنسية وتحلية وتجلية ... لذلك أنا لا أستغرب عزوف قرّاء اليوم عن القراءة فأنتم - أنت وأمثالك- سبب هذا العزوف. إنّكم تكتبون ما لا يُقرأ وما لا يُفْهم وما لا يؤنس. كيف يُقبِل قارئ على كتبٍ فيها الموت والقتل والعطش والنّسيان والجوع وسوء الأدب ؟ أنت رجل يائس تبعث في من يقرأ لك اليأس فيتابعك حينا ثمّ يتركك ويترك كتبك ليفضّل عليها كلّ شيء آخر. اِذهب تجوّل في بعض أنهج العاصمة وستجد هناك كتبا بدينار واحد. قصصا وروايات ودواوين شعر ومسرحيات لا يقبِل عليها أحدٌ. كيف مثلا يقبل عقل القارئ أن يشبّه كاتب مّا أمريكا العظيمة بحيّة وكيف يستسيغ أنّ رجالا يطلقون عليها النّار فيقطعون ذيلها ويجبرونها على الهروب للاختفاء في جحرها تكفكف فيه دمها وتلملم فيه جرحها ؟

- ولكنّ تلك الحيّة التي لا أدري لماذا تشفق عليها أنت قُصِف ذيلها فعلا. ألمْ ترَ كيف تهاوى برج التّجارة العالمي في لمح البصر ؟

- هذا لا ينفي أنّها تبقى أمريكا ! البلد العظيم الذي له علينا جميعا أفضال لا نحصيها لو عددناها.

والآن تعال معي إلى قصّتك "سفر التّيه".

قلتُ :

- لا أظنّك تناقشني فيها فهي كما تحبّ إمتاع وتسلية ؟

- بالعكس، إنّها مفتوحة على مستقبل أسود وفيها سمح لك خيالك أن تقود هذا الشّعب الهانئ المطمئنّ إلى الهاوية.

- أيّ شعب وأيّة هاوية ؟

- ألم تقل إنّ الحافلة التي كانت تعود بالمسافرين إلى مدينتك أو مدينتهم بلغت المدينة فلم تجد لها أثرًا ؟ لم تجد حيّا ولا ميّتا. ركّاب تلك الحافلة، أليسوا هم الشعب ؟ مصيرهم الذي قدتَهم إليه أليس الهاوية أو كما أسميْته أنت نفسك "التّيه" ؟

- هذا تأويل يشرّفني وأنا لا أستطيع إلاّ أنْ أعترف لك وللمرّة الأولى منذ بدأت جدالي بذكائك ونباهتك وقدرتك على الحفر في نصوص الأدب.

قلت ذلك ولزمت الصّمت فظلّ الرّجل صامتا كأنّه يطلب مزيدا من الإطراء ومزيدا من التّعليق على ذكائه الذي فوجئ به ولمّا ران الصّمت أكثر ممّا يجب قطعه الرّئيس :

- واصل يا سيّد الرّبْعي... الوقت يداهمنا.

- تلك القصّة أخافتني كثيرًا. وكان يمكنك لو كنت صادقَ الوطنيّة بارّا بهذا الوطن معترفا لهذا البلد بالجميل، أن تقود تلك الحافلة التي اخترتها مكانا تدور فيه مُجمل الأحداث نحو الجنّة، نحو المدينة الفاضلة، في إشارة إلى أنّنا نسير نحو الأفضل وإلى أنّ

خطانا ثابتة وإلى أنّ تخطيطنا محكم وإلى أنّ الحظّ والسّلامة يرافقاننا أينما حللنا.

- بإمكانك والفكرة جاهزة لديك أن تكتب نصّا تستبدل فيه الحافلة بقطار اجتنابا لوقوع الحافر على الحافر ثمّ تقود المسافرين إلى حيث شئت ... أمّا أنا فلا أستطيع أن أراوغ قارئي ولا أن أزيّف التّاريخ. عندما ذكرت أنّ الحافلة وصلت إلى المجهول وأنّ السّفر كان سفر تيه كنت أعني ما أقول... ولا أريد أن أندم يومًا على اختيار ذهبت إليه. الكتابة يا سيّدي مسؤوليّة والزّمن غربال، يسقط ما لا يصلح للبقاء. يُسقط ما كان أصغر من عيونه ... ولا يذر إلاّ الأقوم والأسلم والأصحّ.

- سمعت بالشّعراء الذين يمدحون الملوك والأمراء بدافع الطّمع وها أنت اليوم تفاجئني بأنّ الكتّاب يمدحون أنفسهم بدافع الصّلف !!!

المهمّ أنّ ما أزعجني في قصّتك تلك هي نهايتها. وإنّي لأنصحك أن تحوّرها في طبعتك القادمة تكفيرا منك عن ذنبك الماثل في اعتبار البلد سائرًا نحو الضّياع وتوبةً منك عن الخيال الفاسد واعترافا بالجميل لهذا الوطن الذي علّمك الرّماية فصرت ترميه.

قلت بغية إيقاف النّقاش ولأنّني أحسست أنّ دمائي أخذت تغلي :

- سأفكّر في الأمر. مُـرّ إلى التي تليها من فضلك.

- التي بعدها هي - عافاني الله وعافى زميلتيّ وزملائي - "الوباء"، ولن أجادلك فيها كثيرا. سأكتفي بلفت انتباهك إلى أنّك اتّهمت كلّ الرّجال بالعجز وجعلت البلاد تعيش على وقع حالة من الضّجر واليأس لم يسبق لها مثيل غير أنّ ما يشفع لك يا عبّاس هو انفتاح قصّتك في نهايتها على أمل. ها أنت تقول في الصّفحة 112 : "أعلِن في التلفزيون أنّ أخبار الحادية عشر ليلا ستحمل إلى النّاس أخبارًا سارّة. فصلّى الخلق العشاء وتضرّعوا إلى الله طويلا ثمّ تسمّروا أمام الأجهزة متلهّفين على الإعلان عن حلّ يُنهي مأساتهم، يجنّبهم عجزهم ويعيد عليهم ما فقدوه ..."

والآن شكرا لك سيّدي الرّئيس وشكرا لكم زميلتيّ وزملائي على ما أبديتموه من اهتمام وانتباه.

شكر الرّئيس بدوره جماعته والتفت إليّ :

- نكتفي يا سليمان بهذا القدر فغدا سيكون الأمر صعبا، أصعب من الأمس وأشقّ من اليوم.

قال ذلك وضغط على زرّ فجاءه مسرعا وقبل أن ينتهي الرّنين ذلك العون، حتّى إنّي خلت أنّ خيْطا كهربائيّا يربط بين الزّرّ هنا وقدميْ العون هناك.

مدّ يده إلى ذراعي فسحبتها منه واتّجهت مباشرة إلى المنصّة واستأذنت الرّئيس في أن أصبّ الماء لأشرب ... أشفق عليّ الرّجل الأشيب - أو هكذا خيّل إليّ - ومدّ نحوي قارورة ممتلئة، سكبت نصفها في جوفي وعدت بالنصف الآخر إلى قبو الحجز.

كانت الكسكروتات جاهزة ولكنّ أحدًا من الثّلاثة لم يجرؤ على الأكل. الجميع كانوا ينتظرونني. رحّبوا بي وسلّموا عليّ كأنّهم لم يرَوْنني منذ أيّام عديدة لا منذ ساعات قليلة ...تحلّقنا حول الأكل البارد وأتينا عليه ... ثمّ بدأت جلسة أخرى من الاستنطاق ... تلك الجلسة كنت في حاجة إليها رغم ما كان بي من تعب ... كنت أرغب في أن أستذكر ما دار بيني وبين مجموعة التّسعة.

سألني الجماعة فأجبتُ ... وعلّقوا على الأسئلة وعلى أجوبتي فأنصتّ إلى تعليقاتهم ...ودعوْا لي بأن يفكّ الله كربتي فأمّنت معهم على الدّعاء ... ثمّ استلقينا على أسرّتنا المقرورة وبدأنا نتنهّد في انتظار أن يأخذنا النّوم قليلا أو يأخذ أحدَنا عونٌ إلى مكتب التّحقيق... لم يأخذنا النّوم ولم يأت أحدٌ ليطرق الباب ولم يأت عونٌ وقت العشاء ليوزّع الكسكروتات ففهمنا أنّنا نسينا وأنّ الحلّ في أن نحاول أنْ ننام.

كنّا نعرف أنّ البرد والجوع والهمّ ثالوث يستعصي معه النّوم ولكنّنا ظللنا نحاول أن نهمد ولو قليلا...

رغم حزني، رغم همّي، رغم سجني، لم أكن أفكّر فيَّ. كنتُ أفكّر في زوجتي وولدي وبنتيَّ. لم أكنْ أحمل همّي. كنت أحمل همّهم ... قال لي محروس الحفيان وهو يلتفت إليّ محاولا أن يضع عينيه في عينيّ :

- أنا سمعت عن قضايا عديدة وعن جلسات تحقيق مختلفة ولكنّي لم أسمع بما يشبه قضيّتك، لذلك فأنا في حيرة من أمري ولا أجد ما أنصحك به ولا أدري ما أتوقّع لك، ولكن ما يسعدني قليلا هو أنّ الجلسات معك متواترة بما يعني أنّك لن تظلّ هنا لأكثر من يومين آخرين.

- نعم، يبدو ذلك، غدا والذي يليه.

- وقد يطلق سراحك بعد ذلك.

- لا أظنّ. التّهم وصلت إلى تدنيس المقدّس وإلى التّشكيك في الوطنيّة وإلى قيادة البلاد نحو التّيه والظّلام.

وران الصّمت.

بدأت أستعيد ما دار بيني وبين الجماعة لا رغبة في استحضاره بل جلبًا للنّوم. وكان وميض فرح يلمع فيّ لأنّهم أخبروني أنّني سأنادى غدًا. غدًا نصل إلى الكتاب السّادس إن

تواصل الاستنطاق بمعدّل كتابين في اليوم وبذلك لن يبق أمامي وأمام المحقّقين غير كتابيْن ... ثمّ تبدأ مرحلة أخرى ...

الطّقس كان باردًا جدّا... هكذا هو ديسمبر عندنا ... شهر يختزل كلّ برد الشتاء ... عمد محروس إلى فكرة لا أدري كيف انتبه إليها. حمل حشيّة وجاء يمدّدها فوقي يغطّيني بها ... ثمّ حَذَيَا حذوه صاحباه فحملا ثلاث حشيّات لهما وله... تتالى على زيارتي شماتة فيّ أعداء كثيرون. جاءني الحمار الذي يرقد مطمئنّا تحت سقف جامع كبير ينعم بدعوات زائريه بالرّحمة وبلهجهم بذكره وبتبرّكهم به، جاءني مرفوقا بالوكيلين اللّذين كانا يعيشان منه ... أشبعني الوكيلان سبّا وشتمًا وملأ أذنيّ حمارهما نهيقا.

قالا لي :

- ها أنت تنال جزاء من يسخر من أولياء الله الصّالحين. لعلّك ستعرف بعد اليوم أنّه يسخر كثيرًا من يسخر أخيرًا ولعلّك مُدرك بعد الآن أنّ من تدخّل في ما لا يعنيه زُجّ به في مكان لا يطيقه ولا يرضيه.

هزّ حمارهما رأسه علامة استحسان قولهما وأطلق موجة شهيق طويلة أيقظتني من سباتي أرتعد، ولو لا الحشيّة فوقي لانتصبت واقفا أو لسقطت أرضًا. وجاءني بعدهم الرّجل الذي

كان يخطّ بيد نجسة حروزا يدّعي لمرضاه أنّها شفاء لهم وسكن ورزق وقوّة وأمان ... ونظر إليّ ضاحكا هازئا وقال :

- آش كلّفك ؟ آش لزّك ؟ كنتَ مرتاحا. كنت في نعمة ولم تشكر فخرجت منها لانشغالك بغيرك. أرأيت إلى أين قادك تجرّؤك على كتبنا المنزّهة ونوايانا الصّادقة وأعمالنا الخيريّة ؟ قادك إلى التّيه ! أليس كذلك ؟ أرأيت أين زجّت بك تلك اليد- يدي- التي فضحتها وقلتَ إنّها تتردّد بين لحم زوجتي وحبر دواتي ؟ أرأيت كيف انتقم منك لحم امرأتي والحبر ؟ كيف نسيت أيّها الكاتب أنّ تلك الرّاقدة على يميني كانت زوجتي- يعني حلالي- التي يحقّ لي أن آتيها حيث شئت متى شئت أنّى شئت ... ثمّ لماذا لم تقل لقرّائك إنّ حروزي - مهما تكن الحالات التي أكتب فيها - تشفي مرضاهم فعلا ؟ لماذا لم تنطق بالحقيقة كاملة ؟ لماذا لم تختر من الحكايات غير ما يتناسب ونواياك الشّرّيرة ؟ ولماذا تصرّ على اقتطاع الأحداث من سياقاتها ؟

وجاءتني المعينة في لباس نوم شفّاف وماكياج خفيف مثير واتّخذت لها مكانا قدّامي وبدأت تسبّني حينا وتضحك منّي هزءا حينا آخر.

- أنت هنا بسبب رميك المحصّنات (هكذا قالت)، ماذا أضارك أنت في علاقتي بموظّف البنك وصديقه ؟ كانا يأكلان لحمي برضَايَ وكنّا ثلاثتنا نسرق من الزّمن ساعات غيبوبة لذيذة لم

تسبّب إزعاجا ولا أذًى لأيّ كان، فلماذا فضحتنا على صفحات روايتك وتعمّدت إخراجي إلى قرّائك على أنّني مومس ؟

ثمّ وكأنّها أشفقت عليّ، أنهت خطابها قائلة :

- الله يهديك.

وجاءني بعد أن جافاني النّوم قليلا ثمّ عاد إليّ، حشدٌ من ركّاب الحافلة التي كان يقودها "حمّادي" ويقتطع تذاكر ركّابها "سلطان" في أقصوصة "سفر التّيه" ... جاؤوني وأشبعوني سبّا وركلا ورفسًا.

- كنّا سنعود إلى ديارنا فرحين ... كنّا سنصل وسنتعشّى وسنبيت هانئين، فلماذا قدتنا إلى التّيه ولماذا أفرغت المدينة من أهلنا ولماذا تركتنا نتخبط بحثا عن الماء والكلأ كالأنعام أو أظلّ سبيلا ؟

ولماذا ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟ أنت دمّرتنا ... ويتّمتنا ... ولا عقاب يناسبك غير الإعدام. سنقيم ضدّك شكوى وسنوجّه لك تهم العبث بتاريخنا وجغرافيّتنا وبمستقبلنا ولن نهدأ قبل أن يفصلوا رأسك عن جسدك بلْ إنّنا سننادي بأن يحرَق رأسك ويدفن رماده في جبّ عميق ... وجاءني بعدهم جميعا "محروس الحفيان" يُنزل عنّي الحشيّة التي غطّاني بها البارحة ويربّت على رأسي ويوقظني.

قلتُ له :

- حشيّتك يا صاحبي أدفأتني وجلب لي دفؤها النّوم، ولكنّ ليلي كان طويلا وبكوابيس مرعبة وبسباب مقذع لم أسمع له من قبل مثيلا وبركل لم أذق أعنف منه.

- لا عليك. اِنس الآن كلّ شيء واستعدّ لجلسة هذا الصّباح.

نظرت إليه، فكّرت في ما قال برهة زمن، ثمّ حرّكت رأسي نزولا وصعودًا فشمالا وجنوبا كأنّني أعطي للمنطقة المسؤولة عن النّسيان في دماغي أمرًا بأن لا تتذكّر ممّا حدث البارحة شيئا ... ويبدو أنها استجابت فورًا ودون تلكّؤٍ.

كنت أدرك ومنذ أن انتهت جلسة الأمس أنّ الاستنطاق اليوم سيكون حول "أيّام إضافيّة أخرى" وكنت على يقين أنّ الجدل مرشّح للاحتدام.

وقفت ... ثمّ جلست ... ثمّ انتصبت واقفا من جديد ... ثمّ عدت إلى الكرسيّ، قبل أن ينتهي الجماعة من وشوشاتهم ويلتفت إليّ رئيسهم قائلا :

- سنسائلك اليوم حول روايتك التي أسميتها "أيّام إضافيّة أخرى" ولست أدري لماذا أضفت "أخرى" إلى "الإضافيّة" في حين كان يمكن أن تكتفيَ بـ : "أيّام إضافيّة" ... ولكنّ هذا ليس مهمّا ... المهمّ أنّ من سيتولّى نقاشك اليوم هي السّيّدة " سعيدة مسعود" وقد استسمحناها لنسائلك معها من حين لحين لأنّ ما في روايتك هذه من سموم أكبر من أن يلمّ به شخص واحد مهما تكن درجة انتباهه إلى ما يختبئ وراء السّطور.

- لا فرق عندي بين أن تنهال عليّ الأسئلة من أحدكم أو من كلّكم. الرّواية روايتي وأنا كفيل بالرّدّ على كلّ ما ستطرحون من أسئلة.

مدّت السّيّدة سعيدة يدها إلى المكرفون ووضعته قريبا من فمها ... سوّت بيدها شعرها الأصفر القصير وعدّلت ياقة قميصها ثمّ حكّت عينيها وأمسكت بأرنبة أنفها بين سبّابتها وإبهامها ... وأخيرا رفعت رأسها نحوي :

- سي عبّاس.

- نعم.

- قدر الإساءة لتونس والمساس بهيبة الدّولة الذي حوته روايتك هذه لا يقاس بكلّ ما في كتبك الأخرى مجتمعة.

- لم أفهمكِ ولست متّفقا معك.

- كيف لا تتّفق معي وأنت لا تفهمني ؟

- لأنّني لم أسئ لأحد ولأنّني لم أفهم دخل الإساءة إلى تونس ودخل المساس بالدّولة في الرّواية ؟

- سأبدأ معك من البداية... منطلق الأحداث في كتابك هذا الصّادر سنة 2007 عن دار نشر تونسيّة كان ذهاب الرّاوي ذات صباح إلى البنك ليسحب منه مبلغ القرض الذي وُعِدَ به.

- تمامًا.

- مررتَ في طريقك بـ"جميل صديقك" العطّار وشربت تحت إلحاحه كأس شاي ومضيت.

- نعم، هو ذاك.

- بعد كأس الشّاي بالضّبط شرعت في بثّ سمومك ونشر نواياك المعادية والمضلّلة وأخذت تسيء إلى الدّولة.

- لاحظي أنّك تخلطين بين تونس والدّولة.

- أنا لا أخلط. تونس هي الدولة والدّولة هي تونس.

- ولكنّ الدّولة معرّضة للزّوال في كلّ وقت أمّا تونس فباقية هنا.

- إذا زالت الأولى فلن يكون للثّانية وجود.

- غريب ما تقولين؟

- ولكنّه ليس أغرب ممّا تقول.

- مثلا ؟

- ما معنى : "كنت أبتعد وكلمات عن الرّخاء والنّموّ والانتعاش تصرّ على أن تقرع أذني..." ؟ هذا معناه أنّك لا تصدّق كلام وسائل إعلامنا الرّسمية وأنّ البلاد لا تعيش رخاء ولا نموّا ولا انتعاشا ؟

- بالضّبط.

تدخّل ذلك الأشيب النّحيف ذو الرّأس الكبير والعينين الشّبيهتيْن بخرميْ إبْرتيْن :

- هل نصدّق روايتك أم نصدّق الأرقام والحسابات ؟

- وهل تحبّ أن أجيبك بصراحة ؟

- نعم. أحبّ.

- صدّق روايتي ودعك من الأرقام.

- لا أستطيع أن أقبل كلاما لا منطق فيه وإنّي لأشكّ أصلا في أنّك قلته وأنت في وعيك.

- إذا كان الأمر كذلك وإذا كنت مقتنعا بأنّ الرّواية هذيان وكلام لا يُعتدّ به فلماذا الاستنطاق ولماذا نضيّع معا وقتنا في جدل عقيم ؟

افتكّت منه السيّدة سعيدة الكلام وقال لي :

- اعترف لنا أنّها هذيان وسننهي البحث حالا.

قالت ذلك وأحسّت أنّها تسرّعت واندفعت فالتفتت إلى رئيس الجلسة كأنّها تعتذر وكأنها تبحث عن أثر تسرّعها فيه فحرّك الرّئيس رأسه علامة الاستحسان والموافقة ثمّ أكّد استحسانه وموافقته فقال :

- وسنغضّ الطرف عن استنطاق اليومين الماضيين ونعدل عن مساءلتك في بقية كتبك.*

* لازم عبّاس الصّمت برهة من الوقت يقلّب فيها كلام الرّئيس على جوانبه العديدة وأدرك أنّه بين قطبيْن يتجاذبانه، كلٌّ يريد أن يأخذه إليه، فقد أغرته من جهة فكرة الاعتراف بأنه يهذي وهو ما سيتاح له أن يبيت الليلة في داره وأن يستريح من كلّ هذا العناء الذي لا يبدو له أفق واضح ولا يبدو مبشّرا بالخير، ومن جهة أخرى، أغرت الكاتب فكرة رفض هذا الاقتراح المغري بما سيتيح له المضيّ قدُمًا في كتابة هذه الرّواية التي أنت الآن بيْن يديها أيّها القارئ.

- ..... كتبت ..... الأيّام الإضافيّة الأخرى ..... وأنا ..... في حالة ..... وعي تامّ وأنا مسؤول عن كلّ ما جاء فيها.

التفت الرّئيس إلى السّيّدة سعيدة مسعود حانقا وقال :

- إذن واصلي. لم أصادف في كلّ حياتي من هو أشدّ عنادا من هذا الرّجل. نحن نقوده إلى الجنّة وهو يهرول نحو الجحيم. إنّه لا يدري ما الذي ينتظره.

واصلت ذات الشّعر الأصفر القصير :

- ثمّ ذهبت إلى البنك ؟

- نعم ذهب الرّاوي إلى البنك.

- وفوجئ بأن ليس في البنك ملّيم أبيض.

- للأسف، نعم.

- ثمّ عمّمت الكارثة فقلت إنّ جميع البنوك والمراكز البريديّة أصبحت فارغة أو مُفرَغة وأنّه يستحيل إجراء أيّ عمليّة صرف أو سحب أو اقتراض ...

- تمامًا.

- وفي الأثناء ذكرت أنّ الرّاوي توفّرت له فرصة تشغيل ابن له مقابل رشوة بثلاثة آلاف دينار فقط وهذا لا يعني سوى أنّك تقنّن الرّشوة وتكرّسها وتشجّع عليها.

- لا. أنا لا أقنّنها ولا أكرّسها ولا أشجّع عليها. أنا أنقدها تأكيدا على أنّي أقف ضدّها. أنت وقفت عند السّطور وكان ينبغي أن تتجاوزي ظاهرها إلى ما يختبئ بينها.

- ولماذا تهوّل الأمور كثيرًا ؟ ألا ترى أنّه ليس عيبا ولا نقيصة أن يجد الواحد وظيفة بثلاثة آلاف دينار فقط ؟

- ولكنّ الشّغل حقّ ينبغي أن يتوفّر بدون مقابل.

- وهل تعتبر مبلغا كهذا مقابلا ؟

- ثمّ إنّ الحظّ إذا سلّمنا بهذا الأسلوب لن يبتسم لمن لا يجد ثمن الشّغل.

- سيّد سليمان، بعد ما عمّمت الكارثة في المكان زدت فعمّمتها في الزّمان.

تدخّل الرّئيس مستوضحا :

- دقّقي أكثر . مزيدا من التدقيق سيّدة سعيدة.

- يعني أنّ فراغ البنوك لم يكن حالة عابرة دامت يوما أو يومين إنّما أمرا متواصلا استشرى وباتت له طبعا تداعيات خطيرة.

- أجل.

- وقد قلت حرفيّا : "استولت طائفة منّا على كلّ الأرصدة الموجودة في البنوك وفي المراكز الماليّة"

- أذكر أنّ ذلك جاء في الرّواية فعلا.

- وتذكر أيضا أنّك جعلت المذيع يختفي تاركا مكانه للمقرئ الشّيخ عبد الباسط عبد الصّمد يرتّل في تؤدة "يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ..." لتقنعنا أنّ لا حلّ لتلك الكارثة التي افترضتها إلاّ الصّبر.

- تمامًا.

- ثمّ جعلت جمهورا غفيرا يتجمّع أمام ساحة الحيّ الإداري ويرشقون واجهاته بالحجارة ولعلّك تذكر أنّك قلت في الصّفحة 23 بالحرف الواحد : "من كلّ ساحة الحيّ الإداري ضجّت الحناجر بالصياح وتعالت هتافات منتظمة تنادي بإعادة الأموال المسروقة وإعادة تمويل البنوك وصرف مستحقّات المواطنين ثمّ سارعت الأيدي إلى الجيوب تقبض على ما فيها من حجر وترمي به واجهات الإدارات والبنوك والسّيّارات الإداريّة ... تهشّم الزّجاج وتساقط، وتساقط ندفا بلّور السّيّارات وتطايرت شظايا شاشات الحواسيب وشهائد التّقدير وشهائد الشّكر ... وتحوّل الحيّ الإداري إلى ركام من البلّور وخلت مكاتبه من مسؤوليها الذين فرّوا عبر أبواب خلفيّة أو اختفوا في الدّهاليز أو التحموا

بصفوف الخلق يرمون كراسيهم التي هربوا منها بما يقع في أيديهم من حجارة أو بلّور ..."

ثمّ إنّك زدت في السّوء سوءًا والشّرّ شرّا حين واصلت القول : "لم يستطع أعوان الأمن والجيش بفصائلهم المختلفة أن يفعلوا شيئا ... لم يتصدّوا لحملة الغضب والتّكسير غير دقائق قليلة ثمّ أسرعوا ينزعون أزياءهم ويلتحمون بصفوف المواطنين منادين بإعادة الأموال إلى خزائنها وبتتبّع ومحاسبة كمشة اللّصوص الذين أفرغوا البلاد ليملؤوا أرصدتهم ويهجّوا".

وكان يمكن لو كنت صادق الوطنيّة، ابنًا بارّا بهذا البلد أن تقف عند ذلك الحدّ من التّصعيد ثمّ تحوّل روايتك نحو الانفراج ... ولكنّك أصررت على المضيّ قدما في التّشاؤم وأنت لا تقصد التّشاؤم في حدّ ذاته إنّما ديدنك الإساءة إلى تونس والمسّ من هيبة الدّولة وزرع الاضطراب والشّكّ في نفوس النّاس وزعزعة ثقة المستثمرين والسّيّاح في أمننا واستقرار معاشنا. أنت جرؤت على اتّهام الدّولة صراحة بأنّها سارقة وهذا خطير. ما تفعله الدّولة من أجلي ومن أجلك ومن أجل هذه الملايين العشرة مجهود مقدّس، ولكن لأنّك متفرّج، لأنّك خارج اللّعبة، لأنّك لا تفهم في الحسابات والميزانيّات والاستثمار والحوكمة ... سمحت لنفسك بأن تتصوّر بلادنا سائرة في اتّجاه الإفلاس بدل أن تصوّرها سائرة في طريق مؤدّية إلى الرّخاء فتطمئن

النّاس وتبثّ الأمن والاستقرار وتوفي هذا الوطن بعض ما له عليك من ديون جمّة.

- عدنا إلى الخلط بين الدّولة والوطن.

- الدّولة هي الوطن. ولكن دعنا من ذلك حتى لا أنسى تذكيرك بأنّك سمّيت ما حدث نكبة. ها أنت في السّطر الرّابع من الصّفحة 27 تقول : "لو عارضنا ارتفاع الأسعار قبل النّكبة لما وصلنا إلى ما نحن فيه ... كانت الأسعار ترتفع ... ونحن نشتري ...نتذمّر ونتنافس في الشّراء... نتذمّر ونتزاحم على البضائع. إلى أن فرغنا نحن وامتلأ غيرنا"

ويبدو أنّ التّشاؤم طبع فيك وفي عائلتك فزوجتك أيضا تنبّأت بهذه الأزمة التي لا وجود لها إلاّ أنّ في أدمغتكم وفي روايتك التي لا يمكن أن يصدّقها أحد. اسمعوها يا جماعة، تقول : "سنفيق ذات صباح على خبر فراغ البنوك من السّيولة ...وسنجوع ... ونموت جوعا".

ثمّ إنّك يا أيّها الكاتب المتشائم نزلت بقيمة الدّولة إلى القاع حين قلت على لسان ذلك العطّار الشّاذّ "جميل" : "أنا مضطرّ لأن أقول لك مثلا إنّ موظّفي الحيّ لا يستطيعون أن ينهوا الشّهر سالمين من الجوع لولاي. أنا الذي أعطيهم خبزهم وتبغهم ومعاليم تنقّلهم، وأنا الذي أتصدّى معهم أو بدلا عنهم

إلى أزمات المرض وفواتير الماء ووجبات الضّيافة وحالات الولادة ... تستطيعين أن تقولي إنّني أنا ... جميل العطّار، دولتهم."

ها أنت تدوس بسطور قليلة هيبة الدّولة وتمحو بجرّة قلم أفضال وزارة الشّؤون الاجتماعيّة وصناديق التشغيل والتّضامن وما تقدّمه الحكومة من مساعدات بمناسبة وبغير مناسبة وحرصها على التّعديل الدّوري لجرايات موظّفيها بما يتلاءم مع متطلّبات الحياة. ها أنت تجعل من "جميل" صديقك دولة الموظّفين وتغيّب الدّولة الحقيقيّة وتحقّر من شأنها وتقزّم دورها.

- ولكنّي لم أقل ما لا يُصَدّق. الموظّف التّونسي مسكين فعلا. إنّه يعيش بالنّسيئة وبالاقتراض وبطرق ملتوية وهذا لا يعني أنّني أنزل بقيمة الدّولة إلى القاع إنّما معناه أنّ الدّولة هي التي حطّت من كرامة مواطنها.

- أنت تبالغ. الموظّف الذي تتحدّث عنه يلبس بدلات أنيقة مستوردة أحيانا ويأكل في المطاعم الفاخرة ويمتلك سيّارة فارهة ومنزلا واسعا ومؤثّثا ويخصّص مبالغ محترمة يصرفها في المقاهي وفي الخمر وفي النّساء.

- أنت تتحدّثين عن كبار الموظّفين الذين يمثّلون نسبة محدودة من هذا الشّعب الشّقيّ.

- ولكنّك لم تشفق على هذا الشّعب الذي تراه شقيّا. ها أنت تجوّعه وتذلّه ... ها أنت تقطع عنه جراياته الشّهريّة وتغلق أمامه كلّ أطواق الأمل. ها أنت تنزع عن هذا الشّعب إنسانيّته حين تساويه بالبهائم وحين تجعله يعيش على الجثث. ها أنت تقدّم البلد - تونس الخضراء- في صورة تعيسة سوداء لا علاقة لها بغير خيالك المريض.

- ما دمت تقرّين أنّني صاحب خيال مريض، فما الذي يثيرك ويغضبك ويدعوك إلى مساءلتي ؟ أتعرفين لماذا أنت حانقة وثائرة ومُرْتَبكة ؟ ذلك ليس لأنّ الرّواية سوّدت البلد وجوّعت الشّعب وأذلّته، ذلك لأنّها استبقت الأحداث ولأنّنا سنعيش قريبا جدّا هذا الوضع الذي ظهرت مؤشّراته للعيان.

- كلّ ما أستطيع أن أؤكّده لك أن لا علاقة اليوم وغدا بين ما تتنبّأ به روايتك وبين المستقبل البديع الذي ينتظرنا والرّاهن الزّاهر الذي نحياه. أنا لا أدري كيف خيالك تجاوز حدوده إلى درجة أنّه صوّر لك زوجتك تقترح عليك أن تجعلوا كلّ شهوركم رمضانًا لا بحثا عن الأجر والثّواب إنّما اقتصادا في الوجبات... ثمّ لمّا رفضت، أصبحت تكتفي بأن تذوّب ملعقة سكّر في كأس ماء لكلّ واحد منكم تكتفون به وجبة ثمّ ترتمون على أسرّتكم في انتظار النّوم ... ثمّ صوّر لك خيالك أنّ الموت بدأ ينتشر بسبب الجوع وأنّ الجنازات أصبحت تتتالى وأنّ النّاس ليظلّوا أحياء أيّاما

إضافية أخرى أخذوا يعيشون على أوراق الشجر وعلى لحوم الجثث.

ودعك يا عبّاس من كلّ هذا وتعال معي إلى أمر عجاب آخر وتعالوا معي أنتم أيّها الزّملاء وأيتها الزّميلة وبعد إذن السّيّد الرّئيس طبعا نتتبّع ما وصل إليه خيال هذا الكاتب الماثل أمامنا بسبب تهم لا تعدّ ولا تحصى. وسأصارحك قبل ذلك بأنّ أدنى تهمة يمكن أن تناسب جرائمك هي تهمة الخيانة العظمى ... ولا تتعجّب. إنّك خائن لهذا الوطن الجميل حين تُخرِجه في وجه مقبّح ومنفّر. أنت خائن لهذا الشّعب العزيز حين تصوّره ذليلا يتسوّل ويجوع ويموت جوعا ويأكل ليحيا أكثر زمن ممكن لحوم موتاه ... أنت خائن لقِيَمنا ومبادئنا حين تخرجنا على قدر من الانتهازيّة والأنانيّة والحيوانيّة لم أجد له شبيها حتّى في قصص بني إسرائيل ... أنت خائن لشرفنا حين تقلب "تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييْها" إلى "تتنازل الحرّة عن كلّ شيء من أجل أن لا تجوع". بل إنّك ذهبت إلى أكثر من ذلك حين أقعدت الرّجال في البيوت وأخرجت نساءهنّ وأخواتهنّ وبناتهنّ يقايضن أجسادهنّ بما يسدّ رمقهنّ ورمق أزواجهنّ...

أحسّ الرّئيس أنّ السّيّدة سعيدة مسائِلتي أصبحت على درجة عالية من التّوتّر زادها حدّةً تعمّدي الابتسام حينا والضّحك حينا آخر فأسرع يصبّ كأس ماء ويقدّمه إليها. ابتلعته دفعة واحدة ثمّ

طلبت كأسا آخر ... شربت نصفه ثمّ رفعت الكأس وأشارت إلى نصفه الفارغ قائلة :

- أنت لا ترى غير هذا. لا ترى غير النّصف الفارغ.

قالت لها زميلتها :

- دعوتِنا منذ حين إلى أن ننتبه معك إلى أمر قلت إنّه عجاب ؟

- آه، نعم، هل يُعقل يا سي سليمان وهل يُعقل يا زميلتي ويا زملائي أن نقحِم في شؤوننا الدّاخلية أطرافا أجنبية فنجعل قناة الـ TV5 الفرنسيّة تناقش قضايانا على منابرها ؟ اِسمعوا معي من فضلكم : "البارحة عرضت قناة الـ TV5 الفرنسيّة ريبورتاجا حولنا. اِستمعت فيه إلى ذلك الجدل الغريب بين الذين يدافعون على اختيار أكل الأطفال حفاظا على حياة الكهول والشّيوخ وبين الذين يميلون إلى إعطاء فرصة الحياة للأطفال بإطعامهم لحوم كبار ذويهم ... ورأيت فيه شوارعنا الخالية وإداراتنا المغلقة وجنائزنا المتتالية ورأيت فيه امرأة تلوك أغصانا طريّة ورجلا يطارد قطّا أسود ثمّ يمسكه ثمّ يخبّئه تحت إبطه ويعود به ركضا إلى بيته"

- أستغفر الله، قال الرّئيس متنهّدا، أنتِ فعلا على صواب، إنّها الخيانة عينها.

اِنتهزت الصّمت الذي ران بعد كلام الرّئيس والذي لم تتله غير تنهيدات عميقة وآهات حرّى لأردّ على بعض ما اتّهمت به.

- ينبغي أن نفهم أنّ تطوّر الأحداث في رواية مّا يحكمه المنطق فإذا كان الكاتب قد انطلق من فرضيّة مفادها فراغ البنوك واختفاء الأموال فلا شكّ أنّ الأحداث التي ستعقب البداية ستكون جوعا وستكون موتا وستكون بحثا عن أصداء كلّ ذلك في وسائل الإعلام. والمفروض يا جماعة أن نميّز بين تغييب القيم والتّنبيه إلى مآل مجتمع مّا في حالة غياب القيم. هذا هو محلّ الاختلاف بيني وبينكم. أنتم فهمتم المسألة على أنّها إخراج للوطن في صورة منفِّرة في حين أنّ نيّة الكاتب كانت التّأكيد على ضرورة الإبقاء على قيمنا حتى يظلّ للوطن استقراره وتوازنه.

- ولكنّك جعلتنا أضحوكة القنوات الأجنبيّة ... وقد وصل بك الأمر إلى حدّ أنّك جعلت تلك القناة الفرنسيّة تحلّ بيْننا وتصوّر جوعنا وتوزّع على التونسيّين صناديق كرتونيّة فيها خبز وبسكويت وشوكولاطة وموادّ معيشيّة ليمدّوا أعمارهم أيّاما أخرى.

- ورغم ذلك فلا شيء يدعو إلى الغرابة. ألم يشاهد أحدكم يوما شعبا حلّت به كارثة فسارعت المنظّمات الإنسانيّة تشدّ أزره وتلبّي حاجيّاته من الأكل والغطاء والدّواء ؟

- ولكنّ الكارثة التي افترضتها لم يقدّرها الله إنّما قام بنسجها خيالك الغريب.

- افترضت أن تتعرّض أموال الشعب إلى النّهب وأنا حرّ في افتراضي بل إنّ لديّ ما يدفعني إليه.

وقف فجأة الرّجل الذي ساءلني أوّل يوم بخصوص "موتك يقتلني" ثمّ عاد إلى الجلوس ثمّ همّ بالكلام ثمّ تراجع ثمّ نطق:

- يدفعك إليه كرهك لنا، كرهك للوطن، كرهك للبلد، ضغينتك على الدّولة. سوء تقديرك للأمور، نكرانك للجميل... موالاتك لأطراف أجنبيّة حاقدة، إصرارك على عدم عرض نفسك على أخصّائيّ نفسيّ...

كلامه أعجب الثّمانية الآخرين فحرّكوا جميعا رؤوسهم نزولا وصعودا علامة الاستحسان فحرّكت أنا رأسي يمينا ويسارا علامة الامتعاض والرّفض.

واصلت مسائلتي :

- أنت لا تستطيع أن تنكر أنّك عبثت بالقيم في روايتك هذه التي أسميتها "أيّام إضافية أخرى" إلى درجة أنّك جعلت "نعيمة" بنت العمدة زوجة "سي عبد الجوّاد" المعلّم تتردّد كلّ فجر وكلّ قيلولة على مغازة صاحبك العطّار "جميل" فيبيعها بما يفعله فيها كيسا أسود فيه ما يكفي لوجبة أو جبتين. ثمّ

عمّمت الاستهتار بالقيم حين جعلت تلك المغازات ودكاكين أخرى تستقبل فتيات في عمر الزّهور ونساء محصّنات يأتين بعلم آبائهنّ وبعولتهنّ.

- هذا يحدث حتى في الأيّام العاديّة فما بالك في الأيّام الإضافيّة الأخرى أيْ في أيّام يصبح شاغلنا الشّاغل فيها البحث عن قشّة للنّجاة من الغريق، عن كوب حليب يمدّ في أنفاسنا حينا آخر... عن ملعقة سكّر نرمّم بها أبداننا المرّة... عن ملعقة حساء أبيض نقيم بها أودنا الآيل إلى السّقوط.

- وظللت مصرّا عبر كلّ ثنايا الرّواية على أنّ حلول مشاكلنا لا تأتي إلاّ من الخارج فجئت بـ "كاترينا" الفرنسيّة وأوعزت إليها وأنت الرّاوي العليم بأن تحضر معها الدّواء والحلوى والبسكويت والخبز والتّبغ وشرائح اللّحم وعلب التنّ والمربّى والجبن ... وإمعانا في الإساءة إلى وطنك وإلى سياسة الدّولة التي تظلّك تحت ظلّها أوعزت إلى تلك الفتاة الفرنسيّة أن تأتينا من بلدها بزيت الزّيتون وبدقلة النّور !!! ألسنا نحن من ننتجهما ؟ كيف يأتياننا من الخارج ؟ كيف يمنّ بهما علينا الأجانب ؟

لمْ يُنكر عبّاس بينه وبين نفسه أنّ بعض محاوريه على درجة عالية من الذّكاء والفطنة والقدرة على التّأويل وعلى تجاوز القراءة إلى النّقد.

قلت ردّا على مسائِلتي :

- تلك كانت مفارقة مقصودة. نحن ننتج الزّيت وننتج أرقى أنواع التّمور وننتج العقول النّوعيّة ثمّ نبيع كلّ ذلك بأثمان بخسة ...

- أقلقني أيضا يا سي ....(وتعمّدت أن لا تذكر الاسم بنيّة التّجاهل والتّحقير) اتّهامك الدّولة بانحيازها نحو المدن على حساب الأرياف. ها أنت في الصفحة 67 تقول على لسان ذلك الشّيخ الذي جاء يزور ابنه إبّان النّكبة : "نحن في أريافنا متوكّلون منذ خلقنا على الله ...أمر الجرايات والبنوك والقروض لا يعنينا في شيء. صحيح أنّنا ندفع مثلكم ... ولكنّنا لا نقبض شيئا."

- هل أفهم من لومك لي أنّ أريافنا جنّات عدن تجري من تحتها الخيرات وأنّ النّاس فيها يتمتّعون بما لا عين رأت ولا أذن التقطت ؟

- الكمال لله ولا أحد يستطيع أن يجعل من الدّولة -أيّة دولة- شمسا يصل ضوءها إلى كلّ الدّنيا !

تدخّل الرّجل الذي ناقشني في "أيّام العطش" ليطلب كلمة فأذن له الرّئيس :

- سأضيف إن سمحتم شيئا آخر. دعوني أقوله حتّى لا أنفجر وحتى لا أصاب من فرط كظم الغيظ بجلطة دماغيّة.

- قلْ. قالوا له جميعا.

- آلمني جدّا وأنا أقرأ رواية هذا الرّجل الذي يدّعي أنّه مثقّف ومبدع أن يجعل من أدبه منبرا يسمح عبره على لسان صديقه الشّاذّ "جميل" للدّول الأجنبيّة أن تتدخّل فينا ... إنّه يقول في الصّفحة السّبعين على ما أذكر ما معناه إنّ شركات أجنبيّة ستحلّ بيننا لإعادة تشغيل البنوك ولتحريك الاقتصاد ولتوفير مواطن شغل ثمّ إنّه يضيف في الصّفحة نفسها وحرفيّا : "مرحبا بالاحتلال" أفوق هذه الخيانة خيانة ؟ أفوق هذه التّهمة تهمة ؟ أفوق هذا النّكران نكران ؟ الرّجل يشرّع للاحتلال بما يعني يا جماعة أنّه مرّ من مرحلة نقد الدّولة إلى مرحلة طرح البديل الذي لا يراه في غير حلول فرنسا بيننا مجدّدا !!!

ضرب السّيّد عبد الحيّ كفّا بكفّ ثمّ صمت وصمت معه الآخرون في إشارة إلى أنّه عليّ أن أردّ على هذه التّهمة واتّفاقا على أنّهم سيمنحونني فرصة للكلام وعلى أنّني سأعجز عن ردّ التّهمة.

ولكنّي تصنّعت برودة دم شديدة وقلت :

- ما الذي يزعجك من كلام قاله رجل شاذّ ؟ ولماذا كلّ هذه الثّورة ولماذا تصاب بجلطة دماغيّة ؟ أنت تكلّمت كثيرا. دعني أقول لك في كلمة واحدة : لا تبتئس بما جاء على لسان ذلك العطّار الشّاذّ.

لم يستسغ ما رددت به عليه ولكنّه اكتفى بما قال وحرّك رأسه في اتّجاه السّيّدة سعيدة سامحا لها بأن تواصل استنطاقي من جديد.

- عجب عجاب أيضا يا عبّاس أنّك لم تقتل نعيمة تلك التي تخون زوجها "عبد الجوّاد" إنّما عمدت إلى قتل أبيها وزوجها في آن. قتلتَ العمدة والمعلّم. قتلت رمز الدّولة ورمز المعرفة مؤثِرًا أن تُبقيَ على رمز الخيانة والعهر "نعيمة".

صفّق سليمان بيديه خمس أو ستّ مرّات متتالية مردّدا "برافو" ... "برافو" ...ثمّ أضاف :

- هذا استنتاج لم يدر بخلدي أبدًا وأنا فعلا أشكرك عليه (وكان صادقا ولم يكن يسخر). صدّقيني لقد قتلتهما دون أن يكون في نيّتي أنّني بذلك أنعي إلى القارئ العلم والدّولة معًا. اسمعيني، ساحتنا النّقديّة شبه فارغة وأؤكّد لك أنّها في حاجة إلى من هم في مثل ذكائك وفطنتك. أنتِ تنبّهتِ إلى ما لم أقصده وقرأتِ ما لم يقرأه أحد قبلك ووظّفت قراءتكِ توظيفا ملائمًا.

لم تستطع السّيّدة سعيدة أن تخفي سرورها ولم يستطع سرورها أن يخفي ابتسامتها ولم يستطع زملاؤها أن يخفوا حسدهم لها.

للحظة انتابني شعور بأنّي أنا من أقيّم وأحاكم لا هؤلاء التّسعة الذين فاجؤوني بجمعهم بين البلاهة والذّكاء.

قال الرّئيس ليضع حدّا لانتشائها وحسدهم إيّاها :

- وبقيت يا سليمان طوال الرّواية متمسّكا بأنّ حلّ أزمتنا لا يأتي إلاّ من الخارج. اِسمع معي ما دار بين "عاصم" وأبيه ذات مكالمة من فرنسا :

["التحوّل الذي تعيشونه هناك أصبح شاغل النّاس هنا"

- "يفكّرون فينا" ؟

- "يطالبون بتجميد أرصدة الذين هرّبوا أموال البلد وينادون بقطع أيديهم"]

وأنا يا عبّاس لا أشكّ مقدار ذرّة في أنّ كلمة التحوّل التي استعملتها مقصودة وأنّك تعني بها شيئا بعينه.

ربّما كان الرّئيس ينتظر أن أقول عنه هو الآخر إنّه ذكيّ وفطن وإنّ السّاحة النّقديّة في حاجة إليه ولكنّي اِكتفيت بالقول :

- قد يكون صحيحا ما ذهبت إليه.

واصلت السيّدة سعيدة تقول :

- ثمّ لم تكتف بفرنسا ملاذًا ومبشّرة بالحلول فجئتنا من الجزائر بمن يأخذ بأيدينا...جئت بـ"مديحة" شقيقة زوجتك وبولدها

"عبد الله" وحمّلتهما أكياس موادّ غذائيّة وموزا وبسكويتا ثمّ أتحت لهما أن يعودا بسميحة الشّابة ذات العشرين ربيعا وبأمّها ليعيشا معهما هناك في الجزائر.

- وماذا في ذلك ؟ ألسْنا شعبا واحدًا ؟ ألمْ تقولوا لنا دائما إنّ دماءنا اختلطت وإنّ اتحادًا يجمعنا ؟ ألا يربطنا تاريخ موحّد ومستقبل واحد ؟

- في ذلك الكثير يا سي عبّاس. في ذلك أنّ التّونسي يتنازل عن عرضه لمن يمنّ عليه بوجبة أكل ... في ذلك أنّ العيش الكريم لا يكون إلاّ خارج الوطن وهذه كارثة، طامّة، عيب، فضيحة، جريمة. أنا لست أدري إن كنت لا تقدّر خطورة ما كتبت أم أنت فقط تتجاهل تلك الخطورة وتمارس اللاّمبالاة. وفي الحالتين أنت مذنب ذنوبا لا تُغتَفَرُ البتّة.

صمتت السّيّدة سعيدة برهة. نظرت في أوراقها. هزّت رأسها هامّة بالكلام من جديد ولكنّها التفتت إلى الرّئيس وقالت :

- أكتفي سيّدي الرّئيس بهذه الأسئلة وبما أبديت من ملاحظات.

شكَرَها الرّئيس وأثنى على مجهودها وعلى ذكائها وأضاف :

- سأشير فقط إلى أنّ الرّواية انتهت بجملة لا تبشّر بأنّ صاحبها عدل عن تشاؤمه وعدّل من اعوجاجه وشذوذه وندم عمّا بدر

منه من إساءات بالغة نحو الدّولة والقائمين عليها والوطن الذي مدّ له أيديه فنشب فيه أنيابه. اِسمعوه يا جماعة، يقول :

"وعاودني الألم في شقّ رأسي الأيمن"

قلتُ :

- نعم. كذلك انتهت الرّواية ... ولكنّ الألم لمْ يعدْ في شقّ واحد. إنّه في كامل رأسي. إنّه في كلّي. إنّه يجري فيّ.

يااااااااااااه يا حيـــاة !

ما كنت أحسبُ أنّني سأستطيع أن أسير وراءك كلّ ذلك الوقت وبكلّ ذلك الثّبات وأنتِ تقادين منزوعة الإرادة إلى مثواك قبل الأخير.

ما كنت أحسبني سأنجح في قيادة سيّارتي على امتداد كلّ تلك المسافة وليس بين عينيّ غير صندوق الشّاحنة الذي يحوي بين جوانبه صندوقك أنتِ.

ما كنت أظنّني سأسلّم بكلام الأطبّاء والممرّضين وأصدّق هبوط مؤشّرات الآلات التي كانوا يشدّونك بها إلى الحياة في انتظار أن تنهضي حيّة من جديد.

ما كنت أحسب أنّني سأصدّق موتك وأشرع في استخراج وثائق نقل جثمانك أنتِ التي دخلتِ المصحّة شبه معافاة تمشين وتتكلّمين وتبتسمين بل وتمزحين.

يااااااااااااه يا حيـــاة !

ما كنت أحسب أنّني سأسلّم بموتك وأنّني سأستطيع أن أواكب مراسمه كأنّني يوم جئت بك أو معكِ إلى مصحّ الموت ذاك لم تكوني منشغلة بطَمأنتي على مآل قضيّتي وتؤكّدين لي أنّك أجريتِ اتّصالات كثيرة وأنّ أمر مُساءلتي حول كتبي

سينتهي بسلام. كأنّنا لم نكن يوم جئنا معًا نغنّي بين الكلام والكلام مع "أمّ كلثوم" "أغدًا ألقــاك" ومع الهادي الجويني "تحت الياسمينة ..." ومع "وردة" "وحّشتوني"... كأنّنا لم نكن نعلّق معًا على نشرات الأخبار الإذاعيّة التي كانت تصلنا عبر فجوج راديو السّيّارة مع كلّ رأس ساعة ونقول عنها إنّها ممجوجة وإنّها إمّا جوفاء كاذبة أو سوداء داكنة. كأنّكِ لم تقولي لي ونحن نتحدّث عن "نديم" ابننا وعن أختيْه إنّ غيابي عنهم جنّنهم وإنّهم لم يتحمّلوا ما أتاه معي جماعة السّيّارة السّوداء وإنّهم عزفوا عن الأكل نهارا وإنّ النّوم هرب منهم ليلاً.

يااااااااااااه

كيف سأصدّق أنّ اسمك الذي حوّرته بما يجعله على رأس ترتيب الأسماء في هاتفي الجوّال لن يظهر أبدا وأنّ صوتك لن يأتيَني أبدا وأنّ ضحكتك لن تجلجل أبدًا... وأنّني سأعيش وحيدًا بعدكِ ؟ كيف سأصدّق أنّ ابنك وبنتيْكِ أصبحوا في عداد اليتامى وأنّني أصبحت ... أصبحتُ ... أصبحت أر... مل ؟

قال ذلك الطّبيب الذي تعوّد على أوجاعك الخفيفة وذهبتِ إليه بعد ما أخِذْتُ منكِ بيوم واحد تشتكين له وجعا حادّا في صدرك يصل صداه إلى كتفيك بعد أن فحصك وأجرى لك تخطيطا على القلب :

- لا تخافي ولا تجزعي ولا تقلقي، سأوجّهكِ إلى أخصّائيّ في الشّرايين... سيحدّد الشّريان المُنسدّ وسيضبط نسبة الانسداد وسيعيد بعد تسريحه الدّم متدفّقًا فيه فتزول الأوجاع وتعودين إلى حيويّتك الاعتياديّة. هو تدخّل بسيط، فقط أنصحك بأن لا تؤجّلي الأمر قليلاً ولا كثيرًا.

ثمّ تولّى الطّبيب كتابة رسالة مفصّلة عن حالتك هرولتِ بها نحو محاميْن فتوصّلا إلى تمتيعي بسراح شَرطيّ. وعُلِّقَ أمرُ مساءلتي بخصوص الكتب ريثما أرافقك إلى طبيب مختصّ وننتهي من إعادة الحياة إلى شريانكِ المتعب.

- كم سيدوم كلّ هذا يا دكتور ؟ لديّ التزامات عديدة وأنت تعرف أنّ زوجي موقوف على ذمّة التّحقيق في قضيّة غريبة لم نتبيّن أسرارها بعد وأنّ البيْت والأولاد في حاجة إليّ أكثر من أيّ وقت مضى ؟

- ثلاثة أيّام تكفيكِ لكلّ شيء ... ثمّ تعودين معافاة.

لمْ يكن طبيبك مخطئا فقد عدنا بعد ثلاثة أيّام. بعد ما نقل إليّ الطبيب المختصّ نبأ موتك بنصف ساعة، جاءني من هناك صوت طبيبك ذاك :

- ها عبّاس، كيف حياة الآن ؟

هل كان يدري - أستغفر الله - أنّ شريان قلبك الذي انسدّ لن يفتح أبدا وأنّ الدّم لن يجري فيه من جديد وأنّك ستموتين بمجرّد ما يشرع الطّبيب المختصّ في عمليّة التّوسيع ؟ تراه لذلك نصحكِ بأن لا تؤخّري الأمر قليلاً ولا كثيرًا ؟

_.....

- البركة فيك. الله يرحمها.

ولا أدري من منّا أقفل هاتفه.

آه يا حياة، ما أسهل أن يصبح أيّ واحد منّا مستحقّا لدعوات الرّحمة والغفران وحسن المآب. قبل اليوم كانوا يقولون لك : "يعيّشك"، بعد ألمك المفاجئ قال الذين علموا الأمر : "الله يشفيها ... اللّطف عليها... مسكينة راجلها (زوجها) وقلبها في وقت واحد !!! بعد موتك، خاطبني من بعيد طبيبك ليسبق النّاس جميعا إلى الترحّم عليكِ. أنتِ كنت شامخة كالجبل ...زاهية كالقمر ...صافية كالبلّور... خفيفة كالغزال ...ولكنّ مجيء جماعة في سيّارة سوداء واُفتكاكي منكِ عنوة وفجأةً أنبتَ في شريان قلبكِ علقة لم يفلح الأطبّاء في القضاء عليها.

كنت جالسا في بهو المصحّة أترشّف قهوة لا طعم لها وأتلهّى بتقليب صفحات مجلّة مهترئة عندما فُتِحَ البابُ وخرجتِ منه محمولة على سرير ذي عجلات عالية تدفعه ممرّضةٌ رشيقة تضحك صامتة وممرّضٌ منهك القوى أشيب.

- إلى أين ؟ قلت له ولها.

- لا تجزع. قالت الجميلة. الطّبيب أمر بإدخالها غرفة العمليّات.

ابْتَسَمْتِ.

ثمّ مضيْتِ وأنتِ تلوّحين لي بيدِكِ اليمنى.

- كم سيدوم تدخّل الطبيب ؟ سألت الممرّض الأشيب.

- سنعود بعد نصف ساعة لنطمئنك عليها ونقول لك إنّها بخيْر.

لم يكن مخطئا ذلك الممرّض المنهك. بعد ثلاثين دقيقة بالضّبط جاءني هو يمشي مرتبكًا وعلى وجهه اصفرار كاصفرار الموت ثمّ تبعته تلك الممرّضة ووقفت أمامي وجهها يابس كأنّه قُدَّ من خشب وأطرافها ترتعش وترتعد ثمّ تبعهما الطّبيب وجاء يصطفّ إلى جانبهما ...نظر إليّ بعينين احمرّتا للتّوّ لا أدري خجلا ....أم حزنًا ...أم استعدادًا للبكاء.

رسمت يدي في وجوههم علامة استفهام فزمّوا شفاههم وحرّكوا رقابهم ورؤوسهم في اتّجاه السّماء.

قالت الممرّضة :

- تعال ألق عليها النّظرة الأخيرة.

حرّكت رأسي أن لا، ثمّ أعدت تحريكه مرّات ومرّات أن لا لا لا.

هكذا أنا. أحبّ أن أحتفظ بصور النّاس وهم يتّقدون حياة ...يأكلون ويشربون ويثرثرون ويضحكون. لا أحبّ أن تمحوَ صوَرُ الموت صورًا أخرى تضجّ بها ذاكرتي فيها الحياة واللّهو والأنس والطّرب.

قال لي أعمامي عندما مات أبي :

- هلمّ أُنظر إليه قبل أن يتوارى ولا تبقى منه غير الصّور.

أبي كان شامخا كجبل. لم يعرف مرضا ولا شكا يوما من علّة أو وجع. قتلته وهو يلازم اليمين أثناء عودته من المسجد سيّارة سوداء يسوقها شابّ في حالة سكر شنيع.

قلت لهم :

- اِذهبوا أنتم وأُنظروا إليه ودعوني أنا أنظر من بعده في الصّور.

خانة الصّور التي في ذهني ليست فيها صورة واحدة لواحد عيناه مغمضتان وعلى وجهه اصفرار كالبياض، أنفاسه منتهية ومحلّ حرارة الحياة سكنته برودة العدمِ.

صادفتني مرّات عديدة حوادث مرور مختلفة بجرحى وبضحايا ولكنّي كنت أتحاشى دائما أن تقع عيناي على من جُرِح أو من قُتِل... وفي كلّ الجنازات التي حضرت كنت أتحاشى النّظر إلى القبر وأبتعد تماما لحظة وضع الميّت في مرْقده الأخير حتّى أظلّ أراه دوْمًا واقفًا ينعم بالحياة.

كيف يريدونني أن أنظر في وجهك الآن فأمحو بنظرتي الأخيرة صورًا لك جميلة زاهية التقطتها لك ذاكرتي وأنت تنعمين بفورة الحياة وفورة الصّحّة وفورة الفرح... الصّورة الأخيرة نفسها، الصّورة التي التقطتك فيها عيناي وأنت تبتسمين وتلوّحين لي بيدك قبل أن تتواريْ وراء باب غرفة العمليّات لم تكن تدعو كثيرًا إلى التّشاؤم والحزن... وجهك كان زاهيا ومن عينيك كان يشعّ

نور يبهر كأنّه قطعة من بلّور. كنت تبتسمين وكنت تلوّحين لي بيدك تشجّعينني على أن أتجلّد نصف ساعة آخر قبل أن نتمكّن من رؤيتنا من جديد.

- لفّوها وضعوها في صندوق وهاتوها. هذا شيك مُمضى ضعوا عليه ثمن إقامتها وثمن موتها وأعيدوها إليّ.

آآآآآآآآآآه.

وأنا طفل حضرت جنازات عديدة. كان أغلبها لعمّال مناجم الفسفاط الذين قضوا نحبهم داخل الدّهاليز المظلمة. كنت ألوم النّساء كثيرًا إلى درجة شتمهنّ على لطمهنّ خدودهنّ... كمْ نعتّهنّ بالوحشيّة وبالخشونة... وكمْ أحسّ الآن أنّني كنت مخطئا جدّا. أنا أيضا أحسست يومها بحاجة أكيدة وملحّة إلى أن ألطم خدّيّ وأجرحهما وأسيلُ منهما الدّم... لا فرق بيني وبين أولائك النّسوة سوى أنّي تماسكت وضغطت على أصابعي وخبّأت يديّ في جيبي حتّى لا آكل بها لحمي.

حين استقرّت في يقيني الفاجعة، سألت الطّبيب :

- ماذا حدث يا دكتور ؟ ماذا حدث بالضّبط ؟ هل فعلا انتهى كلّ شيء ؟

- كنّا ندرك منذ البداية ومنذ أن حدّدنا حجم الانسداد وموقعه أنّ الأمر صعب وأنّ نسبة النجاح غير مطمئنة ولكنّه لم يكن أمامنا حلّ آخر.

رددت عليه :

- كلامك لا يقنع أحدًا. لماذا لم تتركوها لي كما كانت. لقد جاءتكم تمشي على قدميها. تتكلّم وتضحك وتستطيع أن تقفز وتجري... جئتكم بها لتعيدوا إلى شريانها الحياة فنزعتم منها الحياة...

كنت هادرًا كإعصار ... أغلي وأصيح وأضرب الهواء بقبضة يدي وبساقيّ ... التفّوا حولي وأخذوا يهدّؤونني ولست أدري أكان ذلك خوفا عليّ أم خوفا منّي أم خوفا على سمعة المصحّة. جاءني الممرّض الأشيب بماء بارد، والتقطت عيناي الطّبيب ينادي الممرّضة ويهمس لها في أذنها فتسرع بإعداد حقنة وتهمّ بي.

عاودني الهدير فهجمت عليها أفتكّ من يدها الإبرة وأنا أصيح :

- لمْ تعد لي ثقة فيكم. "حياة" جاءتكم تسعى على قدميها فجئتموني بعد نصف ساعة من انفرادكم بها تقولون لي اِذهب ألق عليها نظرتك الأخيرة.

تدخّل الطّبيب وقال للممرّضة : دعيه.

وجاء من أقصى المدينة يسعى "نديم" ابني و"جبران" خاله و"محمود" عمّه. ثلاثتهم كانوا جاؤوا معنا ليطمئنّوا عليك ولتطمئنّي بهم عليّ ولكنّ أيّا منهم لم يستطع أن يواكب مراسم مرورك من جناح المرضى إلى غرفة العمليّات... ثلاثتهم آثروا الابتعاد بدعوى أنّهم يرغبون في احتساء قهوة في

المقهى المُجانب للمصحّة. هم الثّلاثة ذهبوا وابتعدوا وتركونا نحن الثّلاثة وحدنا ... أنتِ والموت وأنا.

وجدوني في حالة هستيريا شديدة ووجدوك ملفوفة في البياض... انتقلت هستيريّتي إلى "نديم" وسكنت خاله وعمّه برودة كبرودتكِ ألجمتهما وجعلتهما على وشك أن يغطَّيَا هُما الآخران بلحافين أبيضين.

يووووووووووووووه

كان رأسي يشتعل.
والبيت هناك، لا بدّ أنّه كان يشتعل. وفي صدور ابنك وأُبنتيك ألسنة لهب لم تطفئها التّعازي ودعوات الصّبر والسّلوان والغفران وحسن المآب. سكنت نديمًا موجة جنون لم نفلح في إسكاتها إلاّ بعد ساعة ضنكٍ ولا بدّ أنّ الموجة نفسها سكنت أُبنتيكِ اللّتين أصبحتا أُبنتيّ لوحدي واللّتين لن تصدّقا بيُسْر أنّك ستعودين إليْهما ممدّة لا واقفة، هامدة لا حراك لك ولا حياة فيك، أنت التي ودّعتهما ضاحكة وقبّلتهما زاهية وضممتهما إليك فخورة بهما... كنت قد أخذت مكاني وراء المقود وظللت أنتظر أن تنتهي أنتِ من مشوار تقبيلك لابنتيْكِ وضمّهما. رأيتك تهمّين بالسّيّارة فأدرت المحرّك ولكنّك عدتِ ثانية إلى الوراء وسألتهما :
- سليْمة، فاطمة، ماذا تحبّان أن أقتني لكما من هناك ؟

- لا شيء ماما، قالتا معًا. يكفي أن تعودي إلينا بسرعة.

قالتا بسرعة ولم تقولا سالمة كأنّ أمر عودتك إليهما معافاة لا شكّ فيه.

ثمّ هممتِ بالسيّارة من جديد. فقمت بإعادة تشغيل المحرّك.

وقبل أن ننطلق، توقّفت على شمالنا شاحنة أخيك ذات الأربعة مقاعد. كان بجانبه شقيقي وكان وراءهما "نديم" ... مددت لأخيك بطاقة مكتوب عليها عنوان المصحّة وقلت للثّلاثة :

- سيروا في أمان الله. نلتقي هناك.

ثمّ همّت سيّارتنا بالانطلاق ولكنّك لكزتني ونزلت. قلت لهم :

- أنا لا أرى موجبا لترككم مشاغلكم وعائلاتكم لأجل أن ترافقونا. ابقوا هنا طمئنونا على "فاطمة" و"سليْمة" وواكبوا مساعي المحامين في قضيّة سليمان.

قال أحد الثّلاثة :

- اِطمئنّي. لن يمسّ بنتيْكِ ضرّ ولن يتوانى المحامون في خدمة عبّاس.

ثمّ أخذ الطّريق يجمعنا ويفرّقنا.

كان رأسي ملتهبًا.

وكان البيت هناك ملتهبًا.

ولا أحسب أنّ اللّهيب الذي تركته فينا نحن الأربعة نديم وفاطمة وسليْمة وأنا سيخبو عاجلا أو آجلا ... وأنا محتجز كنت أظنّني في حال ليس ثمّة ما هو أسوأ منها ثمّ أقنعني موتك أنّ السّجن وتلك الجلسات وذلك التّحقيق الأبله وتلك الحرّيّة التي سُلِبْتها ... كلّ ذلك بدا لي أمام طامّة فراقكِ ... لا شيء. كيف وقتها ظننت أنّ هناك ما هو أسوأ من الموت ؟! كيف ؟!

تعرفين في ما فكّرت ؟

تعرفين أيّ أمنية حطّت في ذهني ؟

لو نطقتِ لقلتِ إنّها جولتنا الاعتياديّة بين أشجار الحديقة يدي على كتفك وشعرك على كتفي... أو إنّها جلستنا المعتادة حول طاولة الشّاي... أو جلوسنا معًا أمام مسرحيّة لعادل إمام أو حوار يجريه أحمد منصور. ولكنّني كنت سأفاجئكِ وأقول لكِ : لا. لا. لا. تلك ليست أمانيّ . تمنّيت لو لم أصادفكِ وّلم أعرفكِ ولم أتزوّجكِ ولم أنجِبْ منكِ. لو لم يحدث ذلك التّعارف ولم يستقرّ فينا ذلك الحبّ ولو لم ينته كلّ ذلك بالزواج، لما وجدتني بعد ذلك أجري وراءك وقلبي يحترق وعيناي على صندوق الشّاحنة الذي فيه صندوقك أنت ... فهل قُدِّر عليّ أن أجري وراءك حيّة وميّتة ؟

كنتِ خارجة من الحمّام.

وكنت لحسن حظي وربّما لسوئه مارّا من هناك. كنت ملفوفة لا شيء يُرَى منك. ربّما كنت ملفوفة كما أنت الآن. ولكنّي رأيت فيك كلّ شيء، شعرًا في لون الحنّاء منسدلا على كتفين ملآنتين، وعينين واسعتين مستديرتين ... لم تكونا خضراوتين ... ولا سوداوين... كانتا في لون السّماء حين تصفو ولا تعكّر صفوها غيوم ولا سحب... وخدّين أحمرين متورّدتين ... تتبّعتكِ وكنتِ أوّل فتاة أتتبّعها... لم يكن بيتكِ بعيدًا عن حمّام الأفراح.

وقتها تمنّيت لو كان أبعد من ذلك بكثير ليطول سيْري وراءكِ تماما كما تمنّيت يوم كنت وراءك وأنت تنامين في صندوق داخل صندوق شاحنة أخيك أن يمتدّ طريقنا إلى ما لا حدّ له لأؤخّر الحريق الذي سيندلع في البيت بمجرّد أن نطلّ على المترقّبين والمترقّبات ولأؤخّر أطول وقت ممكن انتقالك الفعليّ إلى المثوى الأخير.

قلتِ لي بعد ذلك أنّكِ أحسستِ بخطواتي وإنّكِ تعمّدتِ أن تتجاهليها.

ليلتها لم أنمْ.

لم يكن حبّا من أوّل نظرة فأنا لمْ أركِ. ولا حبّا على نحو "والأذن تعشق ..." فأنا لم أسمعك.

لعلّه كان فضولا أو لعلّه كان جنوني الذي أملى عليّ أن أسير وراء واحدة لا شيء تقريبا يُرَى منها وأن أتتبّعها إلى حدود سكناها.

صباحًا، غادرت البيت وذهبت أتّخذ لي مقعدا في المقهى الذي يجانب داركم. كان يهمّني كثيرًا أن أراك. أن أبحث فيك عن الصّورة التي رسمها لك خيالي. كنت أدرك أنّ خيالي شاذّ وأنّ العلاقة بينه وبين المنطق والمعقول والممكن ضعيفة جدّا ... جلست ...ولم أكن أخشى أن أخلط بينك وبين أيّة واحدة أخرى قد يقذفها باب الدّار لأنّني كنت انتبهت جيّدًا إلى قامتك ومشيتك.

مرّت ساعة ولم تخرجي.

نشف فنجان قهوتي ولم أركِ.

طلبت خوفا من غضب النّادل قهوة أخرى ولم تأتِ.

ظهر لي مع آخر رشفة قعر الفنجان وبابكم لم ينفتح أصلا.

ولم أيأس.

كنت على شبه يقين أنّك ستأتين.

وجاء النّادل يطلب ثمن القهوتيْن فنقدته فوقه ثمن فنجان ثالث لم أطلبه ونهضت هامّا بالخروج فإذا بكِ أمامي. لم تكوني خارجة من البيت. كنتِ عائدة إليه.

لم يربكني أنّك ابتسمتِ لي فذلك يحدث أحيانا. لم يربكني أنّك رددتِ على تحيّتي المضطربة بواحدة أطول وأجمل منها فذلك ممكن أيضا.

ما أربكني أنّ عينيْكِ كانتا فعلا زرقاوين دائريّتين وواسعتين وأنّ شعركِ المنسدل على كتفيك كان فعلا في لون الحنّاء. ما أربكني أنّ خيالي الذي طالما اتّهمته بالشّذوذ وبالتطرّف وبالشّرود أقام لي الدّليل على أنّه لم يكن يطلب المستحيل أو على أنّه لا وجود للمستحيل.

مزهوّا بخيالي وفخورًا بابتسامتك وتحيّتك وبجدوى صبري وانتظاري، قفلت عائدا إلى بيْتي وفي خاطري تدور وتلحّ أمنية وحيدة ... لو أستطيع أن أتحكّم في خطّ سيْر الزّمن فأمطّطه حين أريد وأختزله حين أريد... لو أستطيع أن لا أبقي من الزّمن على غير الأوقات التي أحبّ... ذلك المقهى الذي انتظرت فيه رؤياك صار مقهاي المفضّل... ذلك اليوم الذي رأيتك فيه صرت أعدّه يوم السّعد... ذلك النّادل الذي ظلّ نصف يوم يرمقني بارتياب ثمّ اختفى ارتيابه بعد ما أعطيته ثمن قهوة لم أشربها صار صديقي ... جريدة "آخر الأخبار" التي كنت صحفيّة فيها غدت جريدتي المفضّلة وبيني وبينها نشأت علاقة إدمان جميل... ولكنّ ما قرّب كلانا من الآخر وقادني فعلا إليك أو قادك أنت إليّ كان ذلك المقال الذي رددت به عليكِ. ذلك المقال كان رسولا بيني وبينك.

يومها اشتريت كعادتي جريدتكِ واتّخذت لي في المقهى مقعدا يقابل باب بيتكم ويطلّ على الطّريق التي تسلكين. وضع النّادل أمامي قهوتي السّوداء المعتادة ووضع إصبعه على عنوان صغير أسود وقال لي بلهجة باكية :

- اِقرأ هذا الخبر.

كنت أعرفه.

كنت أعرفه جيّدا.

اِلتقينا مرارًا وتجاذبنا الحديث في مناسبات عديدة. وكانت تجمع بيننا نقاط اِلتقاء كثيرة.

أحببته.

ويبدو أنّه أحبّني هو الآخر.

ولأنّه كان يرفض أن يخون أو يبيع قلمه، اِحترمته... لذلك كلّه صعقني الخبر.

"بوهلال النّغري " في ذمّة الله.

الله أكبر. فجعت السّاحة الإعلاميّة عموما وجريدتنا "آخر الأخبار" على وجه التّحديد، بنبإ رحيل الصّحفي القدير "بوهلال النّغري" الذي اختطفه الموت وهو في أوج العطاء. وقد انتهى إلينا والجريدة تحت الطّبع أنّ زوجته السّيّدة "لمياء النّغري" قد عثرت عليه ملقى على أرضيّة الغرفة جثّة باردة كما علمنا أنّ النّيابة العموميّة أمرت بتشريح الجثّة وبدأت التّحقيق مع أرملته.

رحم الله بوهلال.

لقد كان أعظم من الحياة.

وكنّا نظنّه أكبر من الموت.

حياة الفالح

طلبت من النّادل ورقةً وقلمًا وحرّرت ردّا على ما كتبْتِ.

"بوهلال النغري"، كان صرحًا، هل هوى ؟

بقلم : ع / س.

عدد جريدتكم الصّادر أمس الخميس فاجأني مرّتيْن. مرّة أولى إذ نقل إليّ نبأ الفاجعة، نبأ رحيل قلم آخر من الأقلام الجميلة والبديعة الصّادقة المستقيمة، ومرّة أخرى من خلال شكل الخبر وصياغته وحجمه والتّفاصيل التي رافقته.

(نسيت وأنا أكتب الرّدّ أنّك تعنين لي الكثير. كنت أكتب بحياد شديد)

ولتسمح لي الأستاذة "حياة الفالح" أن أنحو عليها باللاّئمة فهي صاحبة الخبر والأمر يعنيها دون غيرها من صحفيّي الجريدة ومسؤوليها.

أوّلا : كان الأجدر أن يُشار إلى خبر رحيل "بوهلال" على الصّفحة الأولى وبخطّ واضح وأن تنزل الجريدة ملتحفة بالسّواد.

ثانيا : نحن جميعا ندرك أنّ "بوهلال" رجل يحمل قبره في رأسه وأنّه قد بدأ منذ زمن ليس بعيدا يقترب من الموت حثيثا وفي

مقالاته العاجّة بالسّواد وبالأسى خير دليل على ذلك... زوجته روت لزميلات لها مرّات أنّ ليله أصبح منذ مدّة هذيانا وسبّا وشتما وبكاء وقهوة سوداء وتبغا ... هل ترين يا سيّدتي أنّ موت "بوهلال" بعد تلك المقالات التي حرّرها وبعد تلك الاعتقالات التي عرفها وبعد موجات التّهديد التي تتالت على إثر نشره بيانات وأرقاما حول الفساد بأنواعه ... هل ترين موته بعد كلّ ذلك أمرا يفاجئ الآخرين ويدعو إلى اتّهام زوجته وإلى تشريح جثّته لقطع الشّكّ باليقين ؟؟؟

الذين قتلوا "بوهلال" يا سيّدتي أنا وأنتِ وأمثالنا واللّصوص ومصّاصو الدّماء وما أكثرهم.

لقد كان موته نتيجة لعجزه عن تنفّس هواء فاسد. ثمّة يا سيّدتي حقائق نموت حين نصطدم بها ثمّ نكتشف أنّنا نواجهها وحيدين ... دون معينين ولا مَعْنيّين ... لو لم يمت "بوهلال" لجُنَّ ... والموت أرحم من الجنون.

ختاما، أشكر الأستاذة صاحبة الخبر على سعة صدرها وشكري للجريدة لإتاحتها لي فرصة الرّدّ والتّعقيب ... وإلى مقال آخر.

أرفقت ورقة المقال بجذاذة كتبت عليها عنواني ومهنتي ورقم هاتفي دون أن أنتظر تعقيبا على ما كتبت ولا اتّصالا من أيّ نوع... ولكنّ اتّصالا من نوع خاصّ جاءني بعد ما أنهيت قراءة ما رددت به عليك. ذلك الاتّصال ما زلت اذكره جيّدًا.

ذلك اللّقاء الذي جمع بيننا كم كان لذيذا.
حياتي بعد ذلك اليوم كم أصبحت أعشقها.
أيامها أحسَسْتُ أنّ النّهار أقصر ممّا يجب وأنّ اللّيل ينبغي أن يطول.
ظلّنا ظلّ شجرة ليمون في منتزه يقع قرب مقرّ الجريدة. تعارفنا وتحادثنا وتناقشنا وخرجنا باستنتاج وحيد مفاده أنّ "بوهلال النّغري" كان خدوما في حياته ...وظلّ خدوما وهو ميّت. رحمكما الله.
تركنا سيّارتينا تحت ظلّ شجرتين عملاقتين وترجّلنا نحو المقهى المنتصب قبالتهما في الخلاء... اِستقللنا طاولة ... أمسكنا برؤوسنا ووضعناها في المكان المفترض للكؤوس والقوارير وانخرطنا في موجة نشيج طويلة.
جاءنا النّادل بكؤوس شاي فيها قطع ليمون وبقارورة ماء. ابتلعنا الشّاي وشربنا الماء ثمّ صببنا على رؤوسنا الملتهبة ما بقي منه وعدنا إليكِ.
- لماذا تركتني وحدي وذهبت ؟ سألتني معاتبةً، جاءني الصّوت من جوف شاحنة أخيكِ.
تجاهلت سؤالك وعتابك وارتميت وراء المقود وشغّلت المحرّك ولكنّك أعدت عليّ السّؤال :
- لماذا تركتني وحدي ومضيت ؟

أحسست أنّه لم يعد من الإجابة بدّ فرددت على سؤالك بجواب وعلى عتابك بعتاب وعلى غضبك بغضب يفوقه حدّة. لم أكن قد رتّبت أيّة إجابة ولكنّي أجبت :

- أنتِ أيضًا تركْتِني وذهبتِ.

سكتِّ.

وسكتُّ.

وساد بيننا الصّمت.

ثمّ بدأ رنين الهاتف يقطع ذلك الصّمت. لم أجب على أيّة مكالمة ولم أطفئ الجوّال ... حتّى يرين على الصّمت صوته.

آآآآه يا حياة

كنّا نقضّي الطّريق معًا.

كنت تصرّين على أن ترافقيني في جلّ السّفرات. يوم عدت بك من المصحّة كنت معي ولكنّك لم تكوني تجلسين إلى جانبي إنّما كنت ترقدين أمامي. لم نكن نحسّ بطول الطّريق ولا بتعب السّفر. كنّا ننبش في ماضينا ونتحدّث حول "نديم" و"فاطمة" و"سليمة" وكتبي ومقالاتك وأصدقائنا وأعدائنا وكنّا نراوح بين الحديث والحديث بنشرة أخبار أو بشريط غناء.

"لماذا تركتني وحدي وذهبتِ ؟"

للحظة زمن بعثت حيّة من جديد لتلوميني غاضبة بسبب ربع ساعة قضيته في المقهى أبكيك وأصبّ على رأسي الماء

لأسكت به اشتعاله حزنا عليك. ولكنّك نسيت أنّك تركتني وحيدًا لا لربع ساعة بل لسنوات عمر أخرى.

"لماذا تركتني ومضيْت ؟"

سمعتك تقولينها وأنا أعود إلى السّيّارة من المقهى وسمعتك تقولينها عندما ووريت التّراب وبدأ النّاس يبتعدون... وكنت آخر من ترك المكان.

يااااه. يااااه يااااه.

كان رأسي يغلي.

وكانت أطرافي ترتعش.

وصندوقك أمامي كان يهتزّ ويرتعد.

وصدري كنت أحسّه خاويا والرّيح تصفّر فيه.

وهاتفي الجوّال لم يكن يكفّ عن الرّنين. وعلى شاشته كانت تتوالى على الظّهور أسماء لجيران لنا وأصدقاء وقرّاء لي ولكِ. كنت أعلم أنّ كلامهم لن يغيّر شيئا.

- الله يرحمها.

- البركة فيك.

- ردّ بالك على روحك.

- هل صحيح ما سمعناه ؟

قالوا هذا وغيره بالهاتف ثمّ أعادوا قوله من جديد عندما التقينا في البيت وفي المقبرة.

آه حياة
ليتني لم أمرّ أمام حمّام الأفراح.
وليتني لم أردّ على مقالك بمقال.
وليت "بوهلال" لم يمت.
وليت أهلي تمسّكوا برفضك زوجة لي.
وليت أهلك أصرّوا على أنّي لا أصلح لك زوجًا.
قال أبوكِ : سألت عنه فقيل لي إنّه زنديق مفلِس مشاكس يبذّر أمواله في الكتب والقراطيس.
وأصرّ على أن يزوّجك لابن عمّك الطّبيب.
وقال أهلي : هذه امرأة تنتقّل كثيرًا بين مجموعات الرّجال ولا تلبس إلاّ الضّيّق والمكشوف، تتحدّث إلى كلّ النّاس وتبيت أحيانا في مكتبها بالجريدة. دعكَ منها ولا تفوّت في ابنة عمّك المعلّمة لواحد آخر قد يكون غريبا.
ولكنّ ما أسكت أهلي وأهلك مجيء ابن عمّك الطّبيب لخطبة ابنة عمّي المعلّمة وخروج علاقة حبّهما إلى المكشوف.
كأنّ ما بين لقائنا أوّل مرّة بالمنتزه المحاذي لمقرّ الجريدة ووجودنا معا آخر مرّة في مصحّة الموت لم يكن ربع قرن.
يااااااااااااااه يا حياة.
لو كان شريانك انسدّ بعد تلك المعركة الضّارية التي دارت بينك وبين تلك الشّركة العملاقة حول الانتدابات والتّشغيل لقُلْنا إنّ التّوتّر والقهر فَعَلا فِعلهما وأنبتا لكِ علقة سدّت شريانكِ

ومنعت الدّماء من التّدفّق من تجاويف القلْب وإليْه ... تلك المقالات التي عكفت على تحريرها وأرفقتها بأرقام صحيحة وبمستندات لا تقبل التّشكيك، تلك التّهديدات التي تلقّيناها وذلك الوعد وذاك الوعيد ... كلّ ذلك لم يتسبّب لك في ألمِ صدرك وانتقالكِ على وجه العجلة إلى مصحّة تبيّن أنّها مصحّة موت سريع... ما قتلك، مجيء سيّارة سوداء فيها ثلاث غلاظ وأقتيادي على مرأى منكِ إلى حيث لا أدري ولا تدرين.

لم تكوني صحفيّة مختصّة في ميدان وحيد. كنتِ تكتبين في السّياسة والاقتصاد والثّقافة والمجتمع ... تنتقين ممّا يجدّ من أحداث ما يستحقّ أن يكون موضوع ورقتك أو ورقاتك... أيّامها أعلنت تلك الشّركة الكبرى عن نتائج مناظرة انتداب كانت نظّمتها منذ شهريْن. فقامت الدّنيا ولم تقعد. وقال المحتجّون هذه نتائج مزوّرة ونجاحات بيعَت ولم تُسْتَحَقّ وطالبوا بالاطّلاع على أوراق امتحانهم.

قال مسؤول الشّركة :

- هذا تشكيك والمشكّكون إخوان الشّياطين. الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.

ثمّ انتقل غضب الشّبّان المحتجّين وأهاليهم إليكِ فأحسستِ أنّكِ أنتِ من نجح فباع المرتشون نجاحكِ إلى واحد آخر... أجريتِ مع المتضرّرين حوارات معمّقة وتحدّثتِ عن أوضاعهم وعن طول انتظارهم وعن آمالهم التي علّقوها على الشّركة

فأجهضها السّماسرة والمتاجرون بالأرزاق وأجريْتِ تحقيقا بيّنتِ فيه ما بين النّاجحين والمسؤولين من قرابة ومن وساطات رشوة ... ذلك الجهد الكبير أرضى عنك مسؤولي الجريدة بسبب ارتفاع المبيعات ولكنّها أثارت ضدّكِ تلك الشّركة التي ما دار في حسبانها أن تُتّهم يوما على الملإ وعلى العلن بالتّزوير فسعت إليكِ وإليّ باحثة عن أيّ شكل من أشكال المصالحة والمهادنة ثمّ لمّا باءت محاولاتها تلك باللاّجَدْوَى أصبح بعض مسؤوليها يهدّدُونكِ ويتوعّدُونكِ.

كلّ ذلك لمْ يُنبِت فيكِ علقةً سدّت طريق الدّماء إلى القلب ومنه.

رحيلكِ حياة زلزل قلوب الذين وقفتِ إلى جانبهِمْ واعتبرْتِ قضيّتهم قضيّتك فجاؤوا من كلّ حدب لتشييعك آسفين عليكِ وعلى قلَمكِ الذي أحبّوه وأدمنوه. رحيلك حياة أثلج صدور أولئك الذين اتّهمتم بالفساد وعبثت بأسمائهم وزعزعت مصالحهم وأظهرتهم للنّاس على صورتهم الحقيقيّة .

آه آه آه يا حياة.

أيّامها ضننتِ بنفسكِ عليّ وعلى نديم وفاطمة وسُليْمة ووهبتِ وقتكِ لأولئك الشّبّان الذين نسفتْ رؤوسُ الفساد آمالهم وافتكّت منهم حقّهم في الحياة... حاورتِهم واحدا واحدًا ... دخلتِ إلى بيوتهم وتعرّفتِ على عائلاتهم... ملأتِ الجريدة بمرارتهم... وأرفقتِ حواراتكِ بنُسخ من شهائدهم العلميّة

والمهنيّة، وببيانات عن حالاتهم الاجتماعيّة ... وأنهيتِ كلّ حوار بجملة جاءت على ألسنتهم جميعا : "أتحدّى الشّركة التي نظّمت المناظرة أن تخرج إلينا على ورقات الصّحافة أوراق امتحاناتنا جنبا إلى جنب مع نسخة من الإصلاح وأن تنشر على الملإ ترتيب المشاركين وفقا لِمَا حصل عليه كلّ واحد من أعدادٍ حقيقيّة."

أحرجت تلك المقالات الشّركة والمسؤولين وعبّأت الصّدور فخرج سكّان الجهة في مظاهرات واعتصم أمام إدارة تلكم الشّركة وفي مناطقها الصّناعيّة وعلى السّكك الحديديّة المتضرّرون ونساؤهم وأطفالهم.

وأرسل الرّئيس المدير العامّ من يقول لكِ :

- دعيك من هذا كلّه. دعيكِ من العمل مع جماعة "آخر الأخبار" وتعاليْ انضمّي إليْنا وأمسكي قسم الإعلام لدينا. سنهبكِ سيّارة فاخرة وجراية مرتفعة ومنحا لا حدّ لها.

ثمّ أرسل يقول :

- إذا لم نقرأ لك ابتداء من العدد القادم كلامًا مختلفا تمامًا عمّا سكتنا وصبرنا عليه طيلة الأيّام الماضية فستكون حربٌ بيننا وبيْنكِ.

ثمّ تلقّيتِ مكالمة أشدّ وعيدًا :

- بمن تريدين أن نبدأ ؟ بسليمان ؟ بولدكِ الأوحد ؟ بسليْمة ؟ أم بفاطمة ؟

وقتها ارتعشتِ وارتعدتِ وخفتِ وركبكِ الهلع ... اصطكّت أسنانكِ وتأرجح في صدركٍ قلبكِ وتخثّر في عروقك دمكِ واصفررتِ وسكنتْ محلّ زرقة عينيْكِ سحابة دكناء... ولكنّك لم تشعري بألمٍ في صدركِ ولا انسدّ شريانكِ ولا استوجب الأمر الطّبيب !! أعلمنا الشّرطة بما بلغنا من تهديد وأحطنا أنفسنا بإجراءات استثنائيّة ... ثمّ بدأت الأمور تنفرج بعد ما أقيلَ ذلك الرّئيس المدير العامّ وتبّع له وشرعت الإدارة في إجراءات ترضية للغاضبين عليها.

كان رأسي يغلي.

والبيتُ هناك لا بدّ أنّه كان يمور.

والحزن الذي في صدورنا مازال يلزمه وقت طويل ليذوب أو قولي ليخفّ.

والأعناق يومها كانت مشرئبّة في اتّجاه الطّريق الموصلة إلى البيت.

وأنا، رغم غليان رأسي، رغم تعب السّفر، رغم حزني، رغم يُتمِي، رغم ما ألمّ بي أيّام الحجز والتّحقيق... كنت أودّ أن يمتدّ الطّريق إلى ما لا نهاية حتّى تظلّين أمامي وحتّى أحتفظ بك فوق الأرض أطول زمن ممكن. كان يسكنني إحساس أنّكِ تنعمين بالحياة ما دمتِ فوق الأرض... ما دمتِ تركبين سّيّارة ... وأنّ موتك الفعلي سيكون بعد أن تتواريْ عنّا ... بعدها أصبحت أواجه باستمرار وجوهكِ المتبقّيّة ... نديم بعينيْه اللّتين صببتِ

فيهما زرقة عينيْكِ وصفاءهما ... فاطمة التي أورثتها قامتك ومشيتك ورنّة صوتك... وسليْمة التي قال كلّ من رآها إنّها نسخة منكِ... نسيت وجهك الرّابع... مقالاتك التي تحتفظين بها في ملفّات خاصّة مرتّبةً وفق تاريخ الصّدور وفي نافذة من نوافذ الحاسوب. بعض تلك المقالات، كم جعلني أصدّق أنّ الصّحافة هي فعلاً سلطة حتّى وإن كانت رابعة ... بعض تلك المقالات لا يزال محفورًا في ذاكرتي لفرط ما اهتممت بها ولفرط ما أثّرت فيّ ... أذكر الآن منها تلك الحوارات التي أجريْتِها مع شبّان ثلاثة ... أمسكتهم السّلطات الأمنيّة على أهبة اجتياز المياه الإقليميّة خلسة للإبحار نحو إيطاليا.

كانوا جهاد وعليّ وتوفيق.

كان صعبا أن تصِلِي إليْهم وأنْ تحاوريهم ولكنّك وصلتِ وخرجتِ منهم بحوارات قرأها كلّ قرّاء "آخر الأخبار"

"جهاد"

اسمي "جهاد"، عمري ثمانية وعشرون عامًا. حصلت على شهادة الباكالوريا في تمام التّاسعة عشر وعلى الأستاذيّة في التّاريخ مع بلوغي الثّالثة والعشرين. منذ خمسة أعوام وأنا أجتاز المناظرة تلو المناظرة ومنذ عام وأنا أتنقل بين حضائر البناء وأجمع ما أجنيه منها عند والدتي استعدادًا للانضمام إلى قافلة متّجهة بحرًا نحو سواحل إيطاليا.

قبل اليوم، كنت أجتهد كثيرًا لإخفاء حقيقة التّضحية التي بذلتها أمّي لتؤمّن لي مصاريف تلك السّنوات الطّويلة من الدّراسة.

سيّدتي : أخرجي للنّاس ما سأرويه لك دون روتوش ولا حذف ولا إضافة. قولي لهم إنّ أبَا جهاد كان مقعدًا. تعرّض لحادث ذات صباح في إحدى حضائر البناء أفقده القدرة على تحريك نصفه السّفليّ وأقعده عن العمل وعن زوجته وعن كلّ الملذّات، وقولي أو اكتبي إنّ أمّ جهاد كانت من أملح نساء الحيّ أو من أملح نساء المدينة. ثمّ قولي إنّ حسنها وقعودَ أبي وتكاليف دراستي وحرصها على نجاحي وكثرة إخوتي وضنك العيش أطمع رجالاً كثيرين فيها. ثمّ لا تخجلي يا سيّدتي وانْشري على جريدتك أنّ أمّي - غفر الله لها- قاومت واستماتت في المقاومة ثمّ انهارت وأصبحت تصرف عليّ من لحمها. سكنتها قناعة بأنّ بغاءها ذاك واجبٌ، عليها أن تؤدّيه بكلّ حزم وبكلّ حرفيّة وبكلّ تفان حقّها عليه نجاحي وتخرّجي وردّي للعائلة الاعتبار.

هل تعرفين ما قال أبي لأمّي بعد أن زغردت طويلاً يوم تخرّجي من الجامعة أستاذا في التّاريخ ؟

بنفسي سمعته يقول لها :

- الآن يكفيك ... وعفا الله عمّا سلف.

المهمّ، أخيرًا عُرِضَ عليّ أن "أحرق" فوافقت ولكنّ العمليّة باءت بالسّجن ... ويبدو أنّي سأظلّ عالة على ثديي أمّي.

لو كان "جهاد" حرًّا، لو لم يكنْ مسلوب الحرّيّة لشيّعك معنا بحرقة ولبكاك بأسف ولوَقَفَ طويلاً يؤبّنُكِ ويعدّد مناقبكِ.

"عـلـيّ"

قرأت أعدادًا كثيرةً من جريدتكم وقرأت من مقالاتكِ الكثير ولديّ ثقة في أنّكِ لن تتصرّفي بالحذف في قصّتي وتذكّري أنّكِ أنتِ من طلبْتِ إليّ الحديث.

عندما تركت ريفنا البعيد وجئت المدينة لأتمّم فيها دراستي العليا أدركت بعد انقضاء الأيّام الأولى أنّ جيبي الفقير إلى السّند وإلى المدد لن يمكّنني من الصّمود قليلا ولا كثيرا أمام متطلّبات حياتي الجديدة.

صدّقيني، لقد ألحّ عليّ رأي بالعودة من حيث جئت وأنا بعدُ في شهري الأوّل بالعاصمة. قلت أعود إلى حضن خالتي التي آوتني عشرين عاما أعيش على إحسانها وعلى دنانيرها

القليلة إلى أن أعثرَ على أيّ شغل... جلست يوما بحديقة البلفدير أقلّب عينيّ بين الوجوه الكثيرة وأقلّب تفكيري بين البقاء والرّحيل فجاءت إلى مقعدي الخشبيّ الأخضر امرأة تسعى... أخرجت من قفّتها سندويتشا قسّمته بيننا وقارورة ماء شربناها معًا وعلبة تبغ بدأنا نمصّها سيجارة تلو الأخرى.

عندما أوشكت سجائرنا على نهايتها كنت قد عرفت أنّها أستاذة فرنسيّة الجنسيّة مُحالة على التقاعد منذ عامين وأنّها اختارت الإقامة في تونس بعدما اقتنت دارًا فيها... وكانت قد عرفت منّي أنّني طالب لا يملك من متاع الدّنيا سوى الصّحة الجيّدة وبعض طموح. تبادل جوّالانا رقميهما وبدأ يمتدّ بين شابّ العشرين وعجوز الستّين جسر مودّة ومصلحة وطمع. تركت التّفكير في خالتي البعيدة التي لم يعد منها نفع وارتميت في أحضان خالتي الجديدة تأكلني وآكل جيبها على امتداد سنوات أربعة... الآن، بعد أن قُبِضَ عليّ "حارقا" نحو إيطاليا، ها أنا أسأل نفسي : إلى أين كنت سأهرب ؟ ألم أكن "سأحرق" بحثًا عن عجوز أخرى ؟ ألم يكن يجدر بي أن أظلّ مع عجوزي الأولى و"اللّي تعرفو خير من اللّي ما تعرفوش" و"شدّ مشومك لا يجيك ما أشوم" ... تلحّ الأسئلة ولكنّ عزائي أنّني مللت وأنّ عشرتي للفرنسيّة كانت مهمّة انتهت يوم أنهيت دراستي ... لم أقل لها شيئا ... لمْ أنْهِ إلى علمها نهاية علاقتنا ... وجئت أرتمي في قافلة إيطاليا.

اللهمّ قد بلّغت.

كم تفاعل مع تلك الصّراحة قرّاء وقارئات... وكم نادت جمعيّات حقوقيّة وإنسانيّة بإطلاق سراح أستاذ التّاريخ ذاك... وكم وكم وكم ... وكم أحسستُ أنّكِ منحتِ عليّـًا ما لم تمنحه إيّاه الدّنيا وما لم يمنحه إيّاه الحظّ وأوليْتِهِ اهتماما لم يولِهِ إيّاه أحد من العالمين.

"توفيق"

ستقولين عن حكايتي إنّها ممّا تعوّدتم نشره على صفحات قضايا المجتمع... لكِ أن تقولي عنّي وعنها ما شئتِ. المهمّ أخرجيها إلى النّاس حتّى يعرفوا أنّني لم أذهب في اتّجاه الهروب إلاّ لمّا انسدّت أمامي كلّ السّبل... المهمّ، أبي كان عاملا في مغازة تبيع الموادّ الغذائيّة والمنزليّة ... وأنا كنت أدرس في الجامعة ... عندما وصلت إلى سنتي الرّابعة فيها، ضاقت بأبي الدّنيا وعجزت جرايته عن مجاراة نسق متطلّباتي واحتياجات العائلة فاضطرّ إلى أن يسرق مشغّله... وانتبه مشغّله إلى السّرقة بعد ما تكرّرت مرارًا... ثمّ جاءت الشّرطة

وأخذت أبي لتحقّق معه. عندها استنجدت أمّي بأختي. قالت لها :

- اِذهبي إلى سي منصور وترجّيْهِ أن يتنازل عن شكواه. اِبنته صديقتكِ وسيقرأ لذلك حسابًا بالتّأكيد.

وذهبت أختي "غالية" إلى "سي منصور". لم تشأ أن تلتقي صاحبتها فآثرت أن تبحث عنه في المغازة. دخلت منكّسة الرّأس وخرجت بعد ساعة منفوشة الشّعر عارية الصّدر... بعض مئات الدّنانير التي اختلسها والدي من أجلي دفعت ثمنها أختي في ساعة شهوة وانتقام.

يكفيكِ هذا سيّدتي. لن أزيد شيئا عليه.

يااااه يــا حياة !

ها أنت تفجعين في عمرك وها نحن نفجع فيكِ إثر خطأ طبّيّ أو خطر طبّيّ وتذهبين لتتواريْ إلى الأبد، أنتِ التي كنتِ تقولين إنّ افتراقنا من الفطور إلى الغداء يؤلمكِ ويُثقِل قلبكِ ويوتّركِ ... أنت التي كنتِ تشرعين في الاطمئنان علينا بهاتفك بعد مضيّ ساعة واحدة من تفرّقنا.

كنتِ تكرهين كلّ أنواع الغياب.

ولم يكن يسعدكِ شيء مثل أن نكون معًا.

خلال المرّات الثّلاثة التي اضطرّتك فيها آلام الوضع إلى دخول المستشفى كنت تلحّين على الطّبيبة حتّى لا تستبقيكِ أكثر من يوم وليلة بل إنّكِ في المرّة الأخيرة وضعت "سليْمة" ليلا وعُدْتِ إلى البيت قُبَيْلَ الشّروق لنبدأ النّهار معًا... ذهبت إلى المصحّة ثلاث مرّات وفي كلّ مرّة كنت تعودين إليّ بواحد من أبنائنا الثّلاثة... هذه المرّة دخلتِ المصحّة ولكنّكِ لم تعودي إليّ بشيء... بل إنّكِ لم تعودي إليّ أصلاً.

- الو، بابا، هل أنت بخير ؟

كدت أجهش بالنّشيج ... كدت أغلق الهاتف وأرميه من الشبّاك ... كدت أجيبها : أنا في الطّريق إليك لأتّكئ على كتفكِ وأشبع بكاء ... ولكنّ موجة من الفرح أسرعت وقتها تداخلني. ها "سليْمة" التي كنت أقول إنّها تغلي وتخبط رأسها وتقطّع شعرها تهاتفني لتطمئنّ عليّ. ها "سليْمة" التي كنت أظنّ أنّ الخبر بعثرها وإنّها قد بعثرت الدّنيا هناك تتجاوز سريعا أزمتها وتنتبه إلى أنّ أباها رجل ضعيف أمام موت الأحبّة فتنسى حزنها لتهتمّ بحزني وتقول لي عليْكَ أن تتجلّد.

- أنا بخيْر. أمّكِ ...

كدت أضيف جريا على العادة "أمّكِ أيضا بخير" ولكنّي تداركت فقلت : الله يرحمها، وعلينا أن نتقبّل الأمر.

ولا أدري من منّا أقفل الهاتف.

أمهل جماعة التّحقيق عبّاسًا ثلاثة أيّام كاملة... ثمّ عادوا إليه... تذكّر "سليمان" الماء الذي صبّته زوجته رحمها الله ... ولكنّه لم يستطع أن يبتسم... أخذوه وكانت السّاعة تقترب من الثّامنة صباحا. ترك البيت يعجّ بالأهل وآخر المعزّين... وركب السّيّارة السّوداء من جديد... ولكنّ ما أدخل فيه بعض الفرح أنّه لم يقَد إلى الحجز إنّما مباشرة إلى غرفة الاستنطاق حيث الجماعة وراء المنصّة ينتظرون ... نهضوا ... واصطفّوا. وجاؤوا واحدًا واحدًا ... عزّوه في امرأته التي قتلوها ودعوا له بالصّبر وبطول العمر ولها بالجنّة والغفران. فدعا عليهم بأن يقصف الله أعمارهم ويدخلهم ناره الملتهبة.

قال الرّئيس :

- إنّه القضاء والقدر. إنّه الموت يا عبّاس، الموت الذي قلت عنه مرّة إنّه يقتُل وتمنّيت مرّة أخرى في كتاب آخر أن يختفي ويزول.

وقالت ذات الشّعر الأسود :

- أنا والله آسفة جدّا وحزينة من أجل أبنائك ولكنّها مشيئة الله، وعسى أن تكرهوا شيئا.

ثمّ عاد الرّئيس يقول :

- نحن يا أستاذ مأمورون ومضطرّون لأن نتمّ ما بدأناه معك. قطع التّحقيق معك شوطا مهمّا ولم يبق إلاّ القليل. سنسائلك اليوم

بخصوص كتبك المعنونة بـ"رأسي الجديد" و"جحيم في الجنّة" و"سفر التّيه" وبها نختم التّحقيق ونحيل التّقرير مفصّلا إلى السّيّد وكيل الجمهوريّة ليقرّر ما يراه صالحا بشأنك.

ردّ عبّاس :

- لا مانع لديّ. هيّا نبدأ. وهات ما لم يعجبكم في "سفر التّيه". أروني كيف مسست بهيبة الدّولة فيها وكيف جرؤت على المقدّس وكيف زعزعت استقرار المجتمع.

أحال السّيّد الرّئيس المكرفون إلى رجل منهم سمّاه "رفيق السّالم" وأذن له ببدء مُساءلتي.

أمسك سي رفيق المكرفون وقرّبه منه ... حيّى زملاءه وحيّى سليمان. ابتسم لهم وابتسم له... ثمّ قال :

- هذا العنوان كان في الأصل لأقصوصة حوتها مجموعتك القصصيّة " لا موت بعد اليوم" ثمّ استعارته منها روايتك هذه التي نسائلك بخصوصها اليوم والتي أنتهز الفرصة لأهنّئك بالجائزة التي نِلتها عنها.

- شكرًا. أقدّر لك ذلك.

- سأصدقك القول. لأوّل مرّة منذ بدأنا التّحقيق معك أصطدم شخصيّا بواحد من كتبك خال من النّوايا الشّرّيرة ومن الإساءة إلى الدّولة وإلى الأشخاص وممّا يمكن أن يهزّ استقرار المجتمع

وأمنه. الحقّ أنّ "سفر التّيه" عمل ممتع لأنّه هادئ لا رفث فيه ولا فجور بل إنّي وجدتك فيه محييا للتّراث القديم مدافعا عن السّياحة الدّاخليّة والخارجيّة مُدينًا بوضوح كلّ أشكال الإرهاب وساخرًا من كلّ أنواع الشّذوذ. لست أدري أمِن حسن حظّي أم من سوئه أنّني لا أجد أسئلة أطرحها عليك ولا اتّهامات أوجّهها إليك. تمنّيْت لو كانت كلّ أعمالك كهذا السّفر الذي أمتعنا وآنسنا وظهرت فيه متفهّما وللمرّة الوحيدة وظيفة الأدب التي هي إمتاع وتسلية لا سبّ وشتم وتعدٍّ على المقدّس بأنواعه.

ثمّ سكت وأومأ إلى الرّئيس بما يفيد أنّه أنهى الكلام.

قال الرّئيس :

- في كلام زميلنا السّيّد "رفيق" ما يقيم الدّليل على أنّنا لا نبحث عن تُهم ولا نرميك باطلاً. ها أنت شُكِرتَ عندما استحققتَ الشّكر وها واحد من أعمالك يبيّن أنّك قادر لو تريد على أن تكون كاتبا دون نوايا شرّيرة ولا مشاعر حسد ولا فتنة تبثّها في قرّائك... وتعال معنا يا عبّاس نمرّ الآن إلى مجموعة قصص لك أسميتها "رأسي الجديد" والتي كلّفنا السّيّد "جبران منصور" ليفيض فيها معك القول.

سي جبران كهل على عتبة الشّيخوخة، رأسه أصلع أملس إلى درجة أن شرايين دماغه كانت ظاهرة، عيناه كبيرتان جاحظتان جبينه عريض ووجنتاه منتفختان. ميزة وجهه التضخّم

في كلّ شيء ووحده أنفه كان شاذّا عن وجهه بما يمتاز به من قصر ونحول... تناول الرّجل المكرفون بتؤدة،ثبّته أمامه وألصق شفتيه في ثقوبه الكثيرة فخرج الصّوت مدوّيّا أزعج زملاءه وأضحكني ويبدو أنّ سي منصور لم يفهم لماذا ضحكت ولماذا بدا على زملائه الانزعاج فرسم بيده علامة استفهام في وجه الرّئيس الذي أبعد عنه المكرفون ونبّهه إلى خفض صوته فاعتذر له وللسّبعة الآخرين وعاد يلتفت إليّ :

- كم أعجبتني يا سيّد عبّاس فكرة الرّأس الجديد وكم تمنّيت لو كان بإمكان كلّ من يؤلمه رأسه أن يستبدله بواحد آخر... إنّها فكرة طريفة لئن كانت لا تقدّم الحلّ فإنّها تأخذنا إلى عالم من السّحر والحلم. ومن يدري ؟ ألا يمكن أن نصل يوما إلى تحقيق شيء من هذا الحلم ؟

- أشكرك سي جبران على إعجابك بالنصّ وعلى قبولك بإمكانيّة تحقيق نسبة من هذا الحلم في قادم الأيّام.

- وكم كنت طريفا يا عبّاس وأنت تقصّ علينا حكاية العين التي وجدتها امرأة ذات صباح داخل بيضة سلقتها فطورا لزوجها.

- شكرًا مرّة أخرى.

- غير أنّ ما لم يعجبني في تلك الأقصوصة هو ذاك التّقديم الذي جعلته يسبقها والذي استعرته من شاعر مغربيّ.

ها أنت تقول على لسانه :

بطول البلاد ... وعرض البلاد ... عيون

أبيع الجرائد ... ليلا ... عيون

أحدّق في صفحات كتابي ... عيون

أفكّر في حجز تذكرة بقطاع الضّياع

عيون

زهور الحدائق

عيون

بخور المجامع

عيون

ولا شيء غير العيون

ما أودّ قوله هو أنّك وظّفت هذا الاستهلال لتشير بطريقتك إلى انتفاء الحرّيّات في البلاد وإلى شدّة المراقبة التي تفرضها الدّولة على مواطنيها وهو ما لا يلتقي مع الحقيقة أبدًا. أنت ترى أنّ الجرائد عندنا بلا حصر وأنّ القنوات التّلفزيّة والإذاعيّة تتكاثر وأنّ الحزب محاط بأحزاب معارِضة وأنّ النّاس يتكلّمون بحرّيّة وأن لا أحد سلّطت عليه الدّولة من يعدّ عليه أنفاسه وكلامه. أنا لست متّفقًا معك في هذه الإساءة التي لو قُدّر لها أن تُتَدَاوَل في سياقات أخرى لقلّصت حتّى من ثقة الآخرين فينا ولجعلتهم يعتبرون بلادنا سجنا.

كان سليمان على يقين بأنّ قدرته على المجادلة والإقناع تراجعت عمّا كانت عليه قبل ترمّله الفجئيّ ... لم تفرّ من رأسه الأفكار ولكنّه أصبح راغبًا عن الكلام الكثير.

قال كأنّه يريد أن يختصر الجدل :

- أقدّر سيّدي تأويلك لهذا النصّ وأحترم رأيك فيه لأنّني رجل أؤمن بالاختلاف. للنصّ الواحد قراءات كثيرة. قراءتك واحدة منها، أنا أحترمها وأعبّر لكَ عن رضاي عنها.

فهم المُسائل أن عليه أن يراعيَ حالة الرّجل وأن لا ينتظر منه أجوبة مطوّلة فمرّ إلى سؤال جديد :

- في نصّك الذي عنوانه "بائع التّين والرّجل الصّورة" تكرّرت الإساءة إلى البلد من خلال إصرارك على الإساءة لرموزه وإلى ممثّلي الدّولة ومسؤوليها.

- كيف ذلك ؟ وضّح أرجوك.

- أنت تحدّثت عن زوجة رجل مهمّ وذكرت أنّ كدسا من التّين استهواها وهي تتجوّل في سوق المدينة.

- نعم.

- ثمّ قلت إنّها اشترت كمّيّة من التّين ولكنها لم تكتف بذلك فاستدرجت صاحب العربة إلى دارها.

ازداد انتباه الثّمانية الآخرين فمدّوا جميعا رقابهم وأدلوا آذانهم ولازموا السّكون والصّمت.

- ثمّ ذكرتَ أنّها لمّا دخل الدّار غلقت عليه الأبواب وقالت هيت لك.

- ولكنّي قلت إنّ بائع التّين ركبه الخوف بمجرّد ما وقعت عيناه على صورة زوجها المعلّقة على الجدار وبمجرّد ما ذكّرته ذاكرته أنّ هذا الرّجل مهمّ وأنّ صورته توشّح دائما أوراق الجرائد وأنّه كثيرا ما وضع على عينيه وفي فمه التّين.

- لا أنكر أنّ في قولك ذاك ما يشفع لك قليلا ... ولكنّ نصّك كان قائما على إساءة واضحة مفادها اتّهام زوجات الكبار بالشّذوذ وبالخيانة.

- أنت ذكرت منذ حين ما يوحي أنّك على دراية بقصّة يوسف ؟

- نعم.

- أترى أنّ زوجات الكبار أجمل منها أو أنّ أزواجهنّ أهمّ من عزيز مصر ؟

- ذلك زمن ولّى. ألم تر أنّ القرآن نفسه لامها كثيرًا على ما أتت؟

وجد سليمان الفرصة لينهي الحديث في حكاية بائع التّين فقال :

- أنا أيضا لم أفعل سوى أن لمت تلك الجميلة. أريد أن أقول إنّه كان عليها أن تكتفي بزوجها.

- في قصّتك "القرار الأخير" لم تجد لمشكلة البطالة حلاّ سوى أن شجّعت شبابنا على أن يرتموا أمام السّيّارات للمطالبة بعد ذلك بمنحة التّأمين. أهكذا نساهم في حلّ مشكلاتنا ؟ أهكذا نفتح الآفاق أمام أبنائنا ؟ أإلى هذا الحدّ نسمح لسوداويّتنا وتشاؤمنا أن يجاوزانا إلى الآخرين ؟ أهكذا ندعو النّاس إلى أن يلقوا بأنفسهم إلى الموت وإلى العجز وإلى الإعاقة ؟

- ولكنّي حاكمت الرّاوي الذي هو أنا في نهاية النصّ وقلت إنّه اقتيد إلى المحكمة وإنّ التحقيق معه مستمرّ !

- أنت بارع في التنبّؤ. ولكنّك لا تتنبّأ إلاّ بسيّئات الأمور... ويبدو أنّ الأمر طبع فيك ... فقد تنبّأت للبلاد بالمجاعة وبالعطش وبفراغ البنوك... ثمّ لم ترحم نفسك فتنبّأت أن تقع أنت ذاتك تحت طائلة التّحقيق. ها أنت تجني نتائج نبوءتك السّوداء القاتمة.

- أنا كذلك. نعم.

- سأختم معك الحديث بالإشارة فقط إلى أمر كان زملائي نبّهوك إليه وهو تلك الفكرة التّعيسة التي تقدّمها عن الرّجل. فبعد ما قدّمته ساذجا ومهووسا وانتهازيّا ومريضا وشاذّا ها أنت تقدّمه ديّوثا.

- كيف ؟

- أنسيت أنّك جعلت أحدهم يبحث لزوجته عن كلب يعوّضها عن الذي فقدته... وجعلته يلهث كالكلب لأجل أن يحصل على واحد

شبيه جدّا بالمرحوم ؟ أنسيت أنّك قلت إنّ كلب تلك المرأة مات غيرة عليها بعدما ضبطك معها أو ضبط معها زوجها ؟ أفوق هذا البؤس بؤس ؟ أفوق هذه الإهانة إهانة ؟ أهذا هو رجلنا ؟ أهذه هي امرأتنا في شريعتنا وفي المجتمع ؟

ردّ سليمان لينهي الحوار :

- ذلك الرّجل كان شاذّا، تلك المرأة كانت أكثر منه شذوذًا، ذلك الكلب الذي مات غيرة على صاحبته كان أحسن حالا وأكثر رجولة من كثير من الرّجال... ومن مهامّ الأدب أن يتسلّل إلى زوايا كهذه وأن يعدل عن الحديث عن العاديّ من الأمور لينتبه إلى ما هو عجيب وغريب وطريف و... وشكرًا.

عدل الرّجل عن إلقاء بقيّة الأسئلة، شكر الرّئيس وشكر زميلتيْه وزملاءه وطوى أوراقه وربّع فوقها ذراعيه ثمّ أخذ يحدّق فيّ مبتسما منتشيا بما عدّه انتصارًا عليّ ونجاحا في أداء مهمّته... ولكنّي بادلته التّحديق والابتسام وأصررت عليهما ولم أعد أذكر من منّا خسر المعركة.

حرّك الرّئيس المكرفون في اتّجاهه وقال لي :

- مازالت أمامنا الآن روايتك الأخيرة التي أسميتها " جحيم في الجنّة" وسأحيل الكلمة بشأنها إلى السّيّد "منعم الجرّاي" ليسائلك بشأن ما يراه فيها مسيئا إلى الدّولة وإلى المجتمع.

قال ذلك ومدّ المكرفون نحو رجل أصفر الوجه كبير الأذنين بارز الصّلع أدركت منذ وقعت عيناي عليه أنّ أسئلته ستكون تعيسة جدّا وأنّ الحوار بيني وبينه قد يصل إلى طريق مسدودة.

نظر إليّ ... نظرت إليه ... غرز فيّ عينيه فـأنغرزتْ فيه عيناي ... زمّ شفتيْه وحرّك رأسه صعودا ونزولاً فزممت شفتيّ محرّكا رقبتي يمينا ويسارًا. أحسست أنّه بدأ يستشيط غضبا فتعمّدت أن أبتسم لأزيد من استفزازه ولأربكه.

قال له الرّئيس :

- تفضّل سيّد منعم. نحن ننصت.

خرج الرّجل من صمته وبادرني بسؤال :

- تحدّثت يا سي سليمان في روايتك موضوع مساءلتنا الآن عن حياة أربع فتيات يشتغلن في حانة.

- نعم.

- وقلت إنّهنّ يقدّمن علاوة على خدمة حرفاء الحانة خدمات أخرى.

- قلت ذلك.

- كلّ ما جاء في روايتك تلك أعجبني إلى درجة أنّي قرأتها مرّتين. أنت أمتعتني لأنّك تسلّلت إلى زوايا لم يتسلّل إليها فيما أعلم آخرون.

أدرك عبّاس أنّ هذا التّثمين هدوء يسبق عاصفة. فقال :

- شكرا لأنّك أعْجِبْتَ بالرّواية وشكرا لأنّك قرأتها مرّتين.

- هل لك أن تذكّرنا بفتيات تلك الحانة ؟
- أذكر أنهنّ سعاد وسعيدة وفاتن وليلى.
- دعنا من سعاد ومن سعيدة ومن فاتن وتعال معي نتذكّر ما قلته بشأن ليلى.
- هيّا.
- يا عبّاس، لو وضعنا كلّ ما قلته في كتبك الأخرى في كفّة وما كتبته في روايتك هذه في كفّة أخرى لرجحت الكفّة الثّانية ولبدا ما كتبته قبلها بريئا وعاديّا جدّا.
ما جاء في كلّ كتبك قشّة وما في روايتك هذه كوم من الصّخر.
ما أتيته من جرم في كلّ كتبك ذرّة من شرّ وما في كتابك هذا الشّرّ كلّه.
إن كنت من قبل قد وجدت ما تدافع به عن جرائمك فإنّك لن تجد الآن كلاما تقوله.
إن كنت قبل " جحيم في الجنّة" قد لمّحت ورمّزت فأنت في كتابك الجريمة هذا تصرّح وتشير إلى أشخاص معيّنين بالصّفة وبالاسم.
علينا جميعا زملائي وأنا أن نشكر الله كثيرا على أنّ هذه الكتب التي كانت ستجلب لك مرتبة شرف قد آلت إلينا لنقرأها ونمحّصها قبل أوان ما كان سيكون تكريما. علينا جميعا زملائي وأنا أن نشكر الله كثيرا لأنّه هدانا إلى تبيّن شرّك المستطير ونواياك الهدّامة في الوقت المناسب.

علينا جميعا أن نحمده تعالى على أنّنا احترمنا المهمّة التي كُـلّفنا بها فانكببنا على قراءة ما هذه الكتب لا لأنّنا ننوي محاسبتك فما دار بأذهاننا قطّ أنّك على هذه الدّرجة من الجرأة والخيانة بل بنيّة تأكيد أهليّتك للتكريم. لك سيّدي الرّئيس ولكم زملائي وزميلتيّ أن تتخيّلوا أيّ مصير كنّا سنلقى وأيّ مصيبة كانت ستحيق بنا لو أنّنا تعاملنا بثقة وقلنا إنّ هذا الكاتب يستحقّ التّكريم... كنّا سنُعْدَم لا محالة.

تخيّلوا فقط زملائي الأعزّاء لو أنّ هذه الرّواية وقعت صدفة بين يدي من يهمّه أو من يهمّها الأمر... كانت ستكون مصيبة وكنّا سنُرمى بأنّنا متآمرون على الدّولة لو أنّنا لم نقل بشأنها الحقّ.

قال عبّاس :

- ألا ترى أنّك تهوّل الأمر كثيرا وأنّك تذهب بخيالك بعيدًا وأنّك خائف أكثر من اللّزوم وأنّك نقلت خوفك إلى الجماعة وكدت تنقله إليّ.

- كدت أنقله إليك !؟ يعني أنّك لا تدرك خطورة ما أتيت !؟

- لم آت شيئا.

- هكذا، أمِن كلّ الأسماء التي تعجّ بها الدّنيا لم تجد غير هذا الاسم الكريم لتقحمه في رواية تدور أحداثها في حانة شبيهة جدّا بماخور عموميّ ؟

- لا تستغرب إن قلت لك إنّ الكتّاب غالبا يختارون الأسماء بشكل اعتباطيّ.

- أنا معك. ذلك يحدث مع الكتّاب الآخرين ...أمّا معك أنت فلا. أنت تقصد كلّ شيء ولست بريئا. نواياك الشّرّيرة مبثوثة في كلّ كتبك والمؤشّرات الدّالّة على تورّطك عديدة لا حصر لها.
- هل لك أن تذكّرني ببعض منها ؟
- أنا هنا لأتولّى تذكيرك. هذا إن كنت فعلا نسيت ؟
تعال معي إلى الشّاهد المكتوب على الصّفحة السّادسة والعشرين : "... أمّا ليلى فلها مشاريعها ... ليلى لا تثق بغير الدّينار ... تحبّ المال حبّا جمّا وتسعى إليه بكلّ الوسائل والأساليب..."
هل يستحقّ هذا الشّاهد تأويلا ؟ هل يحتمل قراءات عديدة ؟ هل يمكن أن نحمله على غير وجه وحيد هو وجه الإساءة إلى سيّدة عظمى تجرّأت على استعمال اسمها الحقيقيّ وعلى نعتها بالجشع وبسوء السّلوك ؟
تدخّل الرّئيس فجأة :
- الآن أدركت أكثر من أيّ حين مضى أنّك على صواب يا سي "منعم" فما في هذا الكتاب لا يضاهيه كلّ ما في كتب هذا الرّجل وما لا يزال في رأسه مجتمعيْن.
ثمّ تدخّلت ذات الشّعر الأسود :
- كان يمكن للكاتب أن يتجنّب هذه الورطة لو لم يذكر الاسم ولو لم يقحِم هذه السّيّدة الفاضلة ضمن بنات الحانة. لست أدري أما أتاه جرأة أم غباء ؟ أتمنّى على كلّ حال أن يكون الغباء

هو ما دفع كاتبنا إلى الإساءة إلى هذه الشّخصيّة العامّة الكبيرة التي نحن مستظلّون بظلّها والتي نحمد الله كثيرًا على أنّها لم تقرأ هذا الكتاب ولم تسمع عنه.

- دأبتم منذ انطلاق جلسات التّحقيق على اتّهامي بشذوذ الخيال ولكن يبدو ومع بلوغكم روايتي الأخيرة أنّكم تأثّرتم بي، بل تجاوزتموني في التّحليق بالخيال بعيدا. هذه المسمّاة "ليلى" لم تكن بمفردها، كانت ضمن أخريات، وكان سياق الرّواية يقتضي أن تفتح هي الأخرى للزّبائن قوارير الخمر وأشياء أخرى.

- ما فصّلت فيه القول بخصوص تلك السّيّدة مختلف تماما فقد ظهرت مثلا في الفصل الوارد بين صفحتيْ 35 و45 امرأة متكالبة على جمع المال وشراء الحليّ والانقضاض على فرص العقارات... وأنت أكّدت تصريحا لا بالتّلميح أنّها تستبيح كلّ الوسائل وكلّ الأساليب من أجل بلوغ غايتها.

- وما الذي أثار غضبك في كلّ هذا ؟

- أنّك أسأت بإصرار إلى شخص بعينه عبر تمثّله في عمل روائيّ روّجت له بعنوان غريب وبصورة مثيرة حتى يُقبل عليه النّاس وتضحي حكاية البنات الأربعة عموما وليلى خصوصا مضغة الأفواه.

- يعني أنّني الوحيد الأوحد العليم العالم ؟! وكأنّني أستقي الأخبار من كوكب آخر. يا سيّدي، كن مطمئنّا، فأوّلا، ليس لدينا

عدد هائل من القرّاء إلى درجة أن تخاف انتشار حكايانا على ألسنتهم. وثانيا، لم يعد ما تخاف أنت أن يعرفه الخلق مستترًا على أحد. وثالثا وأخيرا ضع في اعتبارك دوما أنّك تقرأ رواية ... أتعرف ما معنى رواية ؟!

- ولكنّك ظللت على امتداد هذه الرّواية عاقدا العزم على إفراد هذه الشّخصيّة بفقرات وفصول فيها أحداث وإشارات لا تقبل التأويل. وها أنت إمعانا في الإساءة إليها تقول في الصّفحة التّاسعة والسّبعين : "ليلى مقتنعة تماما أنّها منخرطة في عمل يؤمّن لها حياتها خلال ثلث عمرها الأخير حين لا يعود هذا الجمال وهذا اللّحم قادريْن على شدّ الانتباه وإثارة الغرائز وحين تغزو الأسواق سلع جديدة مستعملة فيها إغراءات أخرى وقادرة على عطاء أكبر وبأثمان أقلّ." ثمّ إنّك تضيف في الصّفحة الواحدة والثّمانين : "وفي رأس ليلى مشاريع وأحلام وطموحات لا تنام ليلا قبل أن تُقَلّبها جميعا وتنظر فيها وتعدّلها وتبوّبها وترتّبها وتخطّط لها ..."

لن يقتنع أحد يا أستاذ أنّك تتحدث عن شخصيّة خياليّة لا وجود لها ... كلّ المؤشّرات تدينك وتذكّر أنّك أدنت نفسك بمؤشّر لا يقبل التّشكيك.

- ذكّرني به أرجوك.

- ألم تجعلها تشتري صالون حلاقة وفساتين أفراح في مدينة كبرى وتكلّف من يهتمّ به ؟

_آه. تذكّرت. شكرًا. ولكنّي لا أجد في أن يكتب واحد حديثا حول واحدة تحبّ المال وتسعى إليه بكلّ الطّرق ما يدعو إلى إدانته.

- هذا صحيح ولكنّك تحدّثت عن واحدة بعينها. ثمّ إنّ الأمر أصبح عصيّا على التّأويل عندما جعلت ليلى (قالها بصوت خافت جدّا) تمسك زمام الأمور فتدير أمور الحانة فتعيّن وتعزل وتمسك الحسابات وتنتقم من أعدائها بالطّرد وبالتّصفية الجسديّة وبسبل شتّى وتحوّل زوجها إلى طرطور لا حول له ولا قوّة.

سيّدي الرّئيس : لا أريد أن أزيد عمّا قلت كلمة واحدة ولن أقبل من هذا الرّجل الماثل بيننا أيّ كلام آخر. إنّه يتدخّل كثيرا في ما لا يعنيه ويجرؤ على ما لا حقّ له فيه ويرمي المحصّنات زورًا وبهتانا ويجاهر بإساءته إلى سيّدة ندرك جميعا مكانتها وقدسيّتها وأفعالها الخيريّة التي يشهد لها بها العالم. شكرا لك سيّدي الرّئيس وشكرا لزميلتيّ وزملائي على صبرهم الجميل.

التفت الجماعة إلى بعضهم ... قرّبوا رؤوسهم من الرّئيس ... وشوشوا بينهم كلاما مقتضبا ... مدّوا لي أوراقا أمضيتها بلامبالاة ... ثمّ ضغط الرّئيس على زرّ تحت المنصّة وهو يقول :

- انتهى عملنا معك سي سليمان ... نرجو لك حظّا سعيدا لدى سيادة وكيل الجمهوريّة الذي ستحال عليه قريبا ليطّلع على التّقرير الذي سنوافيه به وليقرّر ما يراه صالحا بشأنك.

كان حزينا، ولكنّ ومضة فرح برقت فيه فجأة لأنه سيلتقي أصدقاء الحجز من جديد... جاء العون واقتاده... دخل وألقى

السّلام ... ولمّا لم يجبه أحد قلّب نظره في الأسرّة فلم يجد أحدًا ... بات وحيدًا ... ينام ويصحو ... يصحو وينام... يتكلّم سرّا حينا ويجهر بالقول حينا آخر... يتذكّر ويستقرئ... يراجع ما فات ويتنبّأ بما هو آت ... اللّيل كان باردًا وطويلا والأفكار التي حطّت فيه كانت داكنة وثقيلة وكئيبة... ذكّرته وحدته بوحدتها ...وذكّره موتها بسجنه وذكّره حاله بنديم وفاطمة وسليْمة... شكّ كثيرا في أنّه سيظلّ شخصا عاقلا إلى أن يجيء الصّباح... قال سأجنُّ اللّيلة ... ولكن عقله تذكّر قبل أن يهمّ بمغادرته أنّه أصبح مسؤولا وحده على ثلاثة يتامى جدد فقرّر أن يلازم مكانه ...بدأ الهدوء يداخله شيئا فشيئا إلى أن تناهى إلى سمعه طرق على الباب.

جاء الفطور وجاءه أمر بالاستعداد للرّحيل.

- ستترك هذا المكان.

- إلى أين ؟

- ستمثل اليوم أمام رئيس المحكمة وقد تُرحّل من هناك إلى السّجن.

- حسنا.

إنّها رحلة أخرى

قد تطول كثيرًا

وقد لا تنتهي

وقد لا يراه بعد اليوم أحدٌ.

قرأ وكيل الجمهوريّة ملخّص البحث ورفع عينيه فيّ. لم أفهم نظرته. حسبتها شفقة وحسبتها تشفّيا وحسبتها استعلاء ...تعمّدت وأنا أجيب عن أسئلته القليلة أن أقحم في الجواب ما يفيد بأنّني أصبحت منذ أربعة أيّام ... أرمل ... وأنّ زوجتي ماتت بسبب هذا التّحقيق الغريب وأنّني لم أسئ لأحد وأنّ لا أحد اشتكاني.

حرّك رأسه ...قلت سيطلق سراحي وسيعتذر عمّا حدث معي ... ذلك لن يعيد "حياة" ولكنّه سيعيدني إلى وجوهها الثّلاثة التي تركتها أمانة في عنقي ... ولكنّه لم يفعل. أرسل بي إلى السّجن في انتظار أن أمثل أمام المحكمة من جديد.

آآآآه حياة.

ها هو السّجن يصبح قدرنا جميعا !!!

أنتِ في منفاك الأبديّ هناك.

وأنا في هذه البناية المسيّجة بالأسلاك الشّائكة والواقعة في طرف المدينة.

وأبناؤنا الثّلاثة في وحدتهم التي حتمها موتك وسجني.

هكذا كان عبّاس يفكّر وهو يضع قدميه في آخر عتبة تفضي إلى بهو كبير عجّ بسجناء نائمين ومتّكئين ومقرفصين وآخذين في الذّهاب والإيّاب ... ارتمى عليه كلّ من النّاصر ومنصور

والحفيان. سلّموا عليه بحرارة وعانقوه طويلا ثمّ أخذوه إلى الزّاوية التي فيها أسرّتهم والتفّوا به ولكنّ أيّا منهم لم يستطع الكلام ... ران بينهم صمت ثمّ انخرطوا جميعا في موجة بكاء حادّ طويل. موجة بدأت صامتة ثمّ علت ثمّ خفّت حدّتها وظلّت خافتة إلى أن أسلمتهم إلى النّوم ... الوقت كان عندما استيقظوا يقترب من الثّامنة ليلا ... سرت موجة صمت بين السّجناء اعتادت أن تلمّ بهم كلّما حلّ موعد نشرة الأخبار ثمّ صوّبوا أعينهم ومدّوا آذانهم نحو جهاز التّلفزة المركّز عاليا مقابل الأسرّة ... هكذا هم، يظنّون دائما أنّ الأخبار القادمة من خارج السّجن ومن التّلفزة ومن الرّاديو تربطهم قليلا بدنيا النّاس وتخفّف عنهم قليلا وطأة الحبس ووطأة الوقت ... لم تكن نشرة الأخبار يومها نشرة عاديّة فيها ما اعتاد النّاس سماعه منذ أكثر من نصف قرن .كان فيها حديث عن شابّ أضرم النّار في جسده ليسمع النّاس جميعا أنه أهين وأنه احتقر وأنّه لم يجد إلى ردّ الإهانة والاحتقار سبيلا غير إشعال لحمه على الملإ .شدّ الخبر عبّاسا وشدّ معه كلّ زملائه في السّجن...حلّلوه وناقشوه وعلّقوا عليه ساعات طويلة وتنبّؤوا بكلّ التّداعيات الممكنة ولكنّ تنبّؤاتهم تلك لم تجرؤ على أن تستبق ما عاشته البلاد قاطبة بعد ذلك من أحداث عنيفة متواترة ملحّة في كلّ يوم على أن تكون أكثر إرباكا...ولم تفلح الخطابات المتعاقبة على ما فيها من

وعود واعتذارات في إسكات الغضب وفي جعل تلك النّار المستعرة بردا وسلاما على الهلعين منها.
لم يعد المحامون يزورون موكّليهم ولم يعد السّجناء يدعون إلى المحاكمات ولم يعودوا يحسّون بمرور الوقت ولا بالملل ... ثمّة في كلّ ساعة أخبار طريّة تشدّهم إلى متابعتها ويستهويهم تحليلها وتأويلها...
قال نفر منهم لسليمان ذات عشاء :
- المقلق فعلا أنّنا لا نعرف إلى أين نسير.
فردّ عليهم :
- المهمّ أنّنا سرنا ... أنّنا تحرّكنا ... سنقف وسنسقط ولكنّنا سنعيد الوقوف و سنمشي و سنمشي و سنمشي ...
قال نفر آخر :
- وماذا عنّا نحن برأيك ؟ هل سنُنسى هنا أم سنخرج ؟ يراودنا أمل أنّنا سنغادر قريبا. ألا يراودك أنت نفس الأمل ؟

بمجرّد أن انتهى الجماعة من سؤالهم ذاك، سُمِع ضجيج وجرت جلبة وعلت ضوضاء وبدأ الفضاء يسودّ ... جرى الجميع نحو الأمام ... لا أحد التفت إلى الوراء ... دكّوا الأبواب ... رفعوا الحواجز ...وأخذوا يجرون... واستمرّوا في الجري ... لا أحد كان يقوم بالملاحقة ولكنّ الهاربين كانوا يجرون لاهثين ...

عندما ابتعد الأربعة، عبّاس ورفقاؤه الثّلاثة الذين اتّفقوا وهم

يجرون على أن لا يتركوه وحيدا أربعة كيلومترات عن السّجن ... توقّفوا ... التقطوا أنفاسهم ... ابتسموا لبعضهم بعضا ... ثمّ ضحكوا باحتشام ....ثمّ بهستيرية عالية ... ثمّ ضمّهم عناق طويل ... أشاروا إلى سيّارات لم تتوقّف، ثمّ توقّفت سيّارة لم يشيروا إليها ... لم يسألهم صاحبها عن شيء ... أركبهم ثمّ انطلق ... وكان وقتها يفصلهم عن دار عبّاس مسير ساعة زمن.